

تفسير سورة الأنعام

وهي مكية

قال ابن عباس: انزلت سورة الأنعام بمكة. وروى الطبراني عن ابن عباس، قال: نزلت سورة الأنعام بمكة ليلاً جملة، حولها سبعون ألف يجارون حولها بالتسييح^(١). وعن أسماء بنت يزيد قالت: نزلت سورة الأنعام على النبي ﷺ جملة، وأنا آخذة بزمام ناقة النبي ﷺ، إن كادت من ثقلها لتكسر عظام الناقة^(٢). وروى ابن مردويه عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «انزلت سورة الأنعام معها موكب من الملائكة، سد ما بين الخافقين، لهم زجل بالتسييح والأرض بهم ترتج»، ورسول الله ﷺ يقول: «سبحان الله العظيم، سبحان الله العظيم»^(٣).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾

يقول تعالى مادحاً نفسه الكريمة، وحامداً لها على خلقه السموات والأرض قراراً لعباده، وجعل الظلمات والنور منفعة لعباده في ليلهم ونهارهم، فجمع لفظ «الظلمات» ووحّد لفظ «النور»؛ لكونه أشرف، كما قال: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ﴾ [النحل: ٤٨]، وكما قال في آخر هذه السورة: ﴿وَأَنْ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣]. وقوله: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ أى: ومع هذا كله كفر به بعض عباده، وجعلوا له شريكاً وعدلاً، واتخذوا له صاحبةً وولداً، تعالى عن ذلك علواً كبيراً.

وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ﴾ يعنى: أباهم آدم الذى هو أصلهم ومنه خرجوا، فانتشروا فى المشارق والمغارب. وقوله: ﴿ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ﴾ قال ابن عباس: ﴿ثُمَّ قَضَى أَجَلًا﴾ يعنى: الموت ﴿وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ﴾ يعنى: الآخرة. وهكذا روى عن مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبيرة، وغيرهم. وقال الحسن - فى رواية عنه: ﴿ثُمَّ قَضَى أَجَلًا﴾ وهو ما بين أن يُخْلَقَ إلى أن يموت ﴿وَأَجَلٌ مُسَمًّى﴾

(١) إسناده عند الطبراني إسناده صحيح . وزاد السيوطى فى الدر المنثور (٢ / ٣) نسبه لآبى عبيد وابن الضريس وابن المنذر وابن مردويه .

(٢) لم يخرجها الحفاظ ابن كثير ، فلم يذكر إلا أنه رواه سفيان الثوري . والحديث فى مجمع الزوائد (٢٠ / ٧) ، وقال : « رواه الطبراني ، وفيه شهر بن حوشب ، وهو ضعيف ، وقد وثق » . وشهر : ثقة عندنا . وذكره السيوطى (٢ / ٣) ، ونسبه للطبراني وابن مردويه .

(٣) إسناده ابن مردويه فيه رجلان لم أعرف ترجمتهما . وقد ذكره الهيثمى فى الزوائد (٢٠ / ٧) ، وقال : « رواه الطبراني عن شيخه محمد بن عبد الله بن عرس ، عن أحمد بن محمد بن أبى بكر السالى ، ولم أعرفهما ، وبقيّة رجاله ثقات » . وأما اللذان فى إسناده ابن مردويه فهما شيخ شيخه « إبراهيم بن درستويه الفارسى » ، و« أحمد بن محمد بن أبى بكر » . وهو الذى ذكر الهيثمى أنه فى إسناده الطبراني . والحديث ذكره أيضا السيوطى (٢ / ٣) ، وزاد نسبه لآبى الشيخ والبيهقى فى شعب الإيمان والسلفى فى الطيوريات .

عنده ﴿ وهو ما بين أن يموت إلى أن يبعث. ويرجع إلى ما تقدم، وهو تقدير الأجل الخاص، وهو عمر كل إنسان، وتقدير الأجل العام، وهو عمر الدنيا بكمالها ثم انتهائها وانقضائها وزوالها، وانتقالها، والمصير إلى الدار الآخرة. ومعنى قوله: ﴿عنده﴾ أى: لا يعلمه إلا هو، كقوله: ﴿إِنَّمَا عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُحِيطُهَا لَوْفُهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الاعراف: ١٨٧]، وكقوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا. فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا. إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا﴾ [التازعات: ٤٢ - ٤٤]. وقوله: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تُمْتَرُونَ﴾ قال السددي وغيره: يعنى تشكون فى أمر الساعة.

وقوله: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرُّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ اختلف مفسرو هذه الآية على أقوال، بعد الاتفاق على تخطئة الأول القائلين بأنه - تعالى عن قولهم علواً كبيراً - فى كل مكان! حيث حملوا الآية على ذلك، فالأصح من الأقوال أنه: المدعو الله فى السموات وفى الأرض، أى: يعيده ويوحده ويقر له بالالهية من فى السموات ومن فى الأرض، ويسمونه الله، ويدعونه رعباً ورهباً، إلا من كفر من الجن والإنس، وهذه الآية على هذا القول كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ﴾ [الزخرف: ٨٤] أى: هو إله من فى السماء وإله من فى الأرض، وعلى هذا فيكون قوله: ﴿يَعْلَمُ سِرُّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ خبراً أو حالاً. والقول الثانى: أن المراد أنه الله الذى يعلم ما فى السموات وما فى الأرض، من سر وجهر. فيكون قوله: ﴿يَعْلَمُ﴾ متعلقاً بقوله: ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾ تقديره: وهو الله يعلم سركم وجهركم فى السموات وفى الأرض ويعلم ما تكتسبون. والقول الثالث: أن قوله: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ﴾ وقف تام، ثم استأنف الخبر، فقال: ﴿فِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرُّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾، وهذا اختيار ابن جرير. وقوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ أى: جميع أعمالكم خيرا وشرها.

﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا يَدَّعُونَ﴾ ﴿وَلَنْ يَسْتَهْزِئُوا بِهِ. يَسْتَهْزِئُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَرْوُا كَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ يُنْمَكِن لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾

يقول تعالى مخبراً عن المشركين المكذبين المعاندين: أنهم مهما أتتهم ﴿من آية﴾ أى: دلالة ومعجزة وحجة من الدلالات على وحدانية الرب، عز وجل، وصدق رسله الكرام، فإنهم يعرضون عنها، فلا ينظرون إليها ولا يبالون بها، قال الله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا يَدَّعُونَ﴾. وهذا تهديد لهم ووعد شديد على تكذيبهم بالحق، بأنه لا بد أن يأتيهم خبر ما هم فيه من التكذيب، وليجدن غيبه، وليذوقن وبأله.

ثم قال تعالى واعظاً ومحذراً لهم أن يصيبهم من العذاب والنكال الدنيوى ما حل بأشباهم ونظرائهم من القرون السالفة الذين كانوا أشد منهم قوة، وأكثر جمعاً، وأكثر أموالاً وأولاداً واشتغالا للأرض وعمارة لها، فقال: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ يُنْمَكِن لَكُمْ﴾ أى: من الأموال والأولاد والأعمار، والجاه العريض، والسعة والجنود؛ ولهذا قال: ﴿وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا﴾ أى: شيئاً بعد شيء ﴿وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهِمْ﴾ أى: كثرنا عليهم أمطار السماء وينابيع الأرض، أى: استدراجاً وإملاء لهم ﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ أى: بخطاياهم وسيئاتهم التى اجتمروها ﴿وَأَنْشَأْنَا مِنْ

بَعْدِهِمْ قَرْنَا آخَرِينَ ﴿١١﴾ أى : فذهب الأولون كأمس الذاهب وجعلناهم أحاديث ﴿وَأَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ أى : جيلاً آخر لاختيرهم، فعملوا مثل عملهم، فهلكوا كهلاكهم. فاحذروا - أيها المخاطبون - أن يصيبكم مثل ما أصابهم، فما أنتم بأعز على الله منهم، والرسول الذى كذبتموه أكرم على الله من رسولهم، فأنتم أولى بالعذاب ومعاجلة العقوبة منهم، لولا لطفه وإحسانه.

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَابٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١٠﴾ وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ لَعَلَّا يَنْظُرُونَ ﴿١١﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ أَسْتَهْزَيْتُمْ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٣﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴿١٤﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن كفر المشركين وعنادهم ومكابرتهم للحق ومباهتتهم فيه : ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَابٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾ أى : عابوه، ورأوا نزوله، وباشروا ذلك ﴿لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾، وهذا كما قال تعالى مخبراً عن مكابرتهم للمحسوسات : ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ . لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَنْهَارُنَا بَلْ نَحْنُ مُسْخَرُونَ﴾ [الحجر: ١٤، ١٥]، وكقوله تعالى : ﴿وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ﴾ [الطور: ١٤٤] . ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ أى : فيكون معه نذيراً ، قال الله تعالى : ﴿وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ لَمَّا لَا يَنْظُرُونَ﴾ أى : لو نزلت الملائكة على ما هم عليه لجاءهم من الله العذاب، كما قال الله تعالى : ﴿مَا نَزَّلَ الْمَلَائِكَةُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ﴾ [الحجر: ٨] ، وقوله : ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ يَقُولُونَ حَجَرًا مَحْجُورًا﴾ [الفرقان: ٢٢] .

وقوله : ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ﴾ أى : لو أنزلنا مع الرسول البشرى ملكًا، أى : لو بعثنا إلى البشر رسولاً ملكياً، لكان على هيئة الرجل ليتمكنهم مخاطبته والانتفاع بالأخذ عنه، ولو كان كذلك لالتبس عليهم الأمر ، كما هم يلبسون على أنفسهم فى قبول رسالة البشرى، كما قال تعالى : ﴿قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْسُونَ مَطْمَئِنِينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٩٥] ، فمن رحمته تعالى بخلقه أنه يرسل إلى كل صنف من الخلائق رسلاً منهم، ليدعو بعضهم بعضاً، وليمكن بعضهم أن ينتفع ببعض فى المخاطبة والسؤال، كما قال تعالى : ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ الآية [آل عمران: ١٦٤] . قال ابن عباس : يقول : لو أتاهم ملك ما أتاهم إلا فى صورة رجل؛ لأنهم لا يستطيعون النظر إلى الملائكة ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ﴾ أى : واخلطنا عليهم ما يخلطون.

وقوله : ﴿وَلَقَدْ أَسْتَهْزَيْتُمْ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ هذا تسلية لرسوله محمد ﷺ فى تكذيب من كذبه من قومه، ووعد له وللمؤمنين به بالنصرة والعاقبة الحسنة فى الدنيا والآخرة. ثم قال : ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ أى : فكروا فى أنفسكم، وانظروا ما أحل الله بالفقرون الماضية الذين كذبوا رسله وعاندوه، من العذاب والنكال، والعقوبة فى الدنيا، مع ما ادخر لهم من العذاب الأليم فى الآخرة، وكيف نجى رسله وعباده المؤمنين.

﴿قُلْ لَيْسَ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ قُلٌّ لِّلّٰهِ كَتَبَ عَلٰٓى نَفْسِهٖ الرَّحْمَۃَ لِيَجْمَعَكُمْ اِلٰى يَوْمِ اَلْقِيٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيْهِ الَّذِيْنَ حَسِبُوْۤا اَنْفُسُهُمْ فَهَمَّ لَّا يُؤْمِنُوْۤا ﴿١٥﴾ وَلَهُ مَا سَكَنَ فِيْ اٰتِلَ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ

الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ وَليًا فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُهُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ
أَوَّلَ مَنْ أَسَلَهُ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣﴾ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٤﴾ مَنْ
يُصِرْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْقَوْمُ الْمِيمِينَ ﴿١٥﴾

يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض ومن فيهن، وأنه قد كتب على نفسه المقدسة الرحمة، كما
ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة، قال: قال النبي ﷺ: «إن الله لما خلق الخلق كتب كتاباً عنده فوق
العرش: إن رحمتي تغلب غضبي» (١).

وقوله: ﴿لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ هذه اللام هي الموطئة للقسم، فأقسم بنفسه الكريمة
ليجمعن عباده ليقات يوم معلوم، وهو يوم القيامة، الذي لا ريب فيه ولا شك عند عباده المؤمنين، فأما
الجاحدون المكذبون فهم في ربهم يترددون. وقوله: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ أى: يوم القيامة ﴿فَهُمْ لَا
يُؤْمِنُونَ﴾ أى: لا يصدقون بالمعاد، ولا يخافون شر ذلك اليوم.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أى: كل دابة في السموات والأرض، الجميع عباده
وخلقه، وتحت قهره وتدبيره، لا إله إلا هو، ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أى: السميع لأقوال عباده، العليم
بحركاتهم وضمائرهم وسرائرهم.

ثم قال لعبدته ورسوله محمد ﷺ، الذى بعثه بالتوحيد العظيم وبالشرع القويم، وأمره أن يدعو
الناس إلى صراط الله المستقيم: ﴿قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ وَليًا فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ كما قال: ﴿قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ تَأْمُرُونِي
أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ [الزمر: ٦٤]، والمعنى: لا أتخذ ولياً إلا الله وحده لا شريك له، فإنه فاطر السموات
والأرض، أى: خالقهما ومبتدعهما على غير مثال سبق. ﴿وَهُوَ يُطْعِمُهُمْ وَلَا يُطْعَمُ﴾ أى: وهو الرازق لخلقه
من غير احتياج إليهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ . مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ
يُطْعَمُوا . إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٦ - ٥٨]. وقرأ بعضهم ههنا: «وَهُوَ يُطْعِمُهُمْ وَلَا
يُطْعَمُ» أى: لا يأكل (٢). وعن أبي هريرة قال: دعا رجل من الأنصار من أهل قباء النبي ﷺ،
قال: فانطلقنا معه، فلما طعم النبي ﷺ وغسل يديه قال: «الحمد لله الذى يُطْعِمُهُمْ وَلَا يُطْعَمُ، وَمَنْ
علينا فهدانا، وأطعمنا وسقانا وكل بلاء حسن أبلانا، الحمد لله غير مُودَع ولا مكافأ ولا مكفور ولا
مُستغنى عنه، الحمد لله الذى أطعمنا من الطعام، وسقانا من الشراب، وكسانا من العرى، وهدانا من
الضلال، وبصّرنا من العمى، وفصلنا على كثير من خلق تفضيلاً، الحمد لله رب العالمين» (٣).

(١) رواه أحمد في المسند مراراً، بنحوه، منها: (٧٢٩٧، ٧٤٩١، ٧٥٢٠، ٨١١٢) وسناني عن الرواية الأخيرة من
المسند عند الآيات: (٥٠ - ٥٤)، ورواه الطبرى في التفسير بنحوه (١٣٠٩٦، ١٣١٠٥).

(٢) يعنى بفتح الباء والعين. وهذه القراءة مروية عن الحسن والمطوعى. انظر القراءات الأربعة عشر (ص ٢٠٦). وذكرها
الطبرى (١١/ ٢٨٤) مجهلاً قارئها، وقال: «أى أنه يطعم خلقه، ولا يأكل هو. ولا معنى لذلك، لقلة القراءة به».

(٣) هذا حديث صحيح. ذكره الحافظ ابن كثير دون تخريج. وقد رواه الحاكم (١/ ٥٤٦) بهذا اللفظ مع اختلاف قليل
في بعض الكلمات. ورواه ابن حبان في صحيحه (٧/ ٢٦٥) (مخطوطة الإحسان المصورة) مختصراً قليلاً. وقال
الحاكم: «صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه». ووافقه الذهبى.

وقد روى البخارى بعض معناه (٩/ ٥٠١ - ٥٠٢) بروايتين من حديث أبي أمامة. وكذلك رواه أبو داود
(٣٨٤٩). وروى الحاكم حديث أبي أمامة هذا (٤/ ١٣٥، ١٣٦) بروايتين، وقال في كل منهما: «صحيح الإستاذ،
ولم يخرجاه». ووافقه الذهبى! فلم يعقب عليه بأنهما في صحيح البخارى.

﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ أى : من هذه الامة ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾. قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾. يعنى: يوم القيامة. ﴿مَنْ يَصْرِفْ عَنْهُ﴾ يعنى: العذاب ﴿يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ﴾ يعنى: فقد رحمه الله ﴿وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ (١) ، كما قال: ﴿فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ آل عمران: ١٨٥ ، والفوز: هو حصول الربح ونفى الخسارة.

﴿وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمَسُّكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شِدَّةً قُلْ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَتَيْنَكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةً أُخْرَىٰ قُلْ لَآ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُمْ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾

يقول تعالى مخبراً أنه مالك الضر والنفع، وأنه المتصرف فى خلقه بما يشاء، لا معقب لحكمه، ولا راد لقضائه: ﴿وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمَسُّكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، كما قال: ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾ الآية [فاطر: ٢] ، وفى الصحيح: أن رسول الله ﷺ كان يقول: «لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد»؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ أى: هو الذى خضعت له الرقاب، وذلت له الجبابرة، وعتت له الوجوه، وقهر كل شىء ، ودانت له الخلائق، وتواضعت لعظمة جلاله وكبرياته وعظمته وعلوه وقدرته الأشياء، واستكانت وتضاءلت بين يديه وتحت حكمه وقهره . ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾ أى: فى جميع ما يفعله ﴿الْخَبِيرُ﴾ بمواضع الأشياء ومحالها، فلا يعطى إلا لمن يستحق ولا يمنع إلا من يستحق. ثم قال: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شِدَادَةً﴾ أى: من أعظم الأشياء شهادة ﴿قُلْ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ أى: هو العالم بما جنتكم به، وما أنتم قائلون لى ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ أى: وهو نذير لكل من بلغه، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ [هود: ١٧]. قال الربيع بن أنس: حق على من اتبع رسول الله ﷺ أن يدعو كالدعى دعا رسول الله ﷺ ، وأن يندثر كالذى أنذرت.

وقوله: ﴿أَتَيْنَكُمْ لَتَشْهَدُونَ﴾ أى: أيها المشركون ﴿أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةً أُخْرَىٰ قُلْ لَآ أَشْهَدُ﴾ كما قال: ﴿فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدُ مَعَهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥٠] ، ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾.

ثم قال مخبراً عن أهل الكتاب: إنهم يعرفون هذا الذى جنتهم به كما يعرفون أبناءهم، بما

= وأشار الحافظ ابن حجر إلى حديث أبى هريرة هذا أثناء شرحه حديث أبى أمامة ، ونسبه للنسائى وابن حبان والحاكم . ولكنه ليس فى السنن الصغرى للنسائى ، فالتسبة إذن للسنن الكبرى .

وقوله : « غير مودع » : هو بفتح الدال المهملة المشددة ، أى : غير متروك . وهذا الضبط هو الثابت وحده فى اليونانية . وذكر القاضى عياض فى مشارق الأنوار (٢٨٢/٢) والحافظ فى الفتح : أنه يجوز كسر الدال المشددة ، بمعنى : غير تارك طاعة ربى .

(١) فى المطبوعة والمطبوع من «عمدة التفسير» وكذا المخطوطة الأزهرية: «وذلك هو الفوز المبين» وهو خطأ واضح. (الباز).

عندهم من الأخبار والأنبياء عن المرسلين المتقدمين والأنبياء، فإن الرسل كلهم بشرُوا بوجود محمد ﷺ وبعثته وصفته، وبلده ومهاجره، وصفة أمته؛ ولهذا قال بعد هذا: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ أى: خسروا كل الحسارة ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بهذا الأمر الجلى الظاهر الذى بشرت به الأنبياء، ونوهت به فى قديم الزمان وحديثه. ثم قال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ أى: لا أظلم من تقوّل على الله، فادعى أن الله أرسله ولم يكن أرسله، ثم لا أظلم من كذب بآيات الله وحججه وبراهينه ودلالاته، ﴿إِنَّهُ لَا يَفْلَحُ الظَّالِمُونَ﴾ أى: لا يفلح هذا ولا هذا، لا المقتري ولا المكذب.

﴿وَيَوْمَ نحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَائُكُمْ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ ثُمَّ لَوْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلِمًا لِلَّهِ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْهَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾

يقول تعالى مخبراً عن المشركين: ﴿وَيَوْمَ نحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ يوم القيامة، فيسألهم عن الأصنام والأنداد التى كانوا يعبدونها من دونه قائلاً لهم: ﴿أَيْنَ شُرَكَائُكُمْ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ كما قال فى سورة القصص: ﴿وَيَوْمَ يُأْتِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الآية: ٦٢].

وقوله: ﴿ثُمَّ لَوْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ﴾ أى: حججهم. ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ قال ابن عباس: أى: معذرتهم. وكذا قال قتادة. وقال ابن جرير: والصواب: ثم لم يكن قيلهم عند فتنتنا إياهم، اعتذاراً مما سلف منهم من الشرك بالله ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾. وروى ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: أتاه رجل فقال: يا أبا عباس (١). سمعت الله يقول: ﴿وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾؟ قال: أما قوله: ﴿وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ فإنهم رأوا أنه لا يدخل الجنة إلا أهل الصلاة، فقالوا: تعالوا فلنجدد، فيجحدون، فيختم الله على أفواههم، وتشهد أيديهم وأرجلهم ولا يكتمون الله حديثاً، فهل فى قلبك الآن شيء؟ إنه ليس من القرآن شيء إلا قد نزل فيه شيء، ولكن لا تعلمون وجهه (٢). وقال الضحاك عن ابن عباس: هذه فى المنافقين. وفى هذا نظر، فإن هذه الآية مكية، والمنافقون إنما كانوا بالمدينة، والتى نزلت فى المنافقين آية المجادلة: ﴿وَيَوْمَ يَعْتَبُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [المجادلة: ١٨]. وهكذا قال فى حق هؤلاء: ﴿انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ كما قال: ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ. مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يَضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ﴾ [غافر: ٧٣، ٧٤].

وقوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلِمًا لِلَّهِ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَا﴾

(١) «أبو عباس»: كنية عبد الله بن عباس. وهذا هو الثابت فى المخطوطتين: «يا أبا عباس»، وفى المطبوعة: «يا بن عباس».
(٢) ورواه أيضاً الطبرى (١٣١٤٠) (١١ / ٣٠٢). ورواه قبل ذلك بالإسناد نفسه (٩٥٢٠) (٨ / ٣٧٣). ورواه عقب ذلك (٩٥٢١) بإسناد آخر مطولا.

أى: يجيئون لسمعوا قراءتك، ولا تجدى عنهم شيئاً؛ لأن الله جعل ﴿عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ أى: أغطية لئلا يفقهوا القرآن ﴿وَلَمَّا آذَانَهُمْ وَقُرْآءَ﴾ أى: صمماً عن السماع النافع، فهُمْ كما قال الله تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَتَّقُ بِمَا لَا يُسْمَعُ إِلَّا دَعَاءُ وَنِدَاءُ صُمُّكُمْ عَمِّي فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [البقرة: ١٧١]. وقوله: ﴿وَأَنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ أى: مهما رأوا من الآيات والدلالات والحجج البيّنات، لا يؤمنوا بها. فلا فِهم عندهم ولا إنصاف، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣].

وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ﴾ أى: يحاجونك وينظرونك فى الحق بالباطل ﴿يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أى: ما هذا الذى جئت به إلا مأخوذ من كتب الأوائل ومنقول عنهم. وقوله: ﴿وَهُمْ يَتَّبِعُونَ عَنَّا وَيَتَّبِعُونَ عَنَّا﴾ فى معنى ﴿يَتَّبِعُونَ عَنَّا﴾ قولان: أحدهما: أن المراد أنهم ينهون الناس عن اتباع الحق، وتصديق الرسول، والانقياد للقرآن، ﴿يَتَّبِعُونَ عَنَّا﴾ أى: ويتعدون عنه، فيجمعون بين الفعلين القبيحين: لا يتتبعون ولا يدعون أحداً يتتفع. وهذا القول أظهر، والله أعلم، وهو اختيار ابن جرير. والقول الثانى: روى عن ابن عباس قال: نزلت فى أبى طالب كان ينهى الناس عن النبى ﷺ أن يؤذى. وكذا قال عطاء بن ديار وغيره: إنها نزلت فى أبى طالب. وقال سعيد بن أبى هلال: نزلت فى عمومة النبى ﷺ، وكانوا عشرة، فكانوا أشد الناس معه فى العلية، وأشد الناس عليه فى السر. رواه ابن أبى حاتم. ﴿وَأَنْ يَهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أى: وما يهلكون بهذا الصنيع، ولا يعود وباله إلا عليهم، وما يشعرون.

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَعُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَلَيْتُنَا نُرَدُّ وَلَا نَكُذِّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٧﴾ وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٨﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَعُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٢٩﴾

يذكر تعالى حال الكفار إذا وقفوا يوم القيامة على النار، وشاهدوا ما فيها من السلاسل والأغلال، ورأوا بأعينهم تلك الأمور العظام والأهوال، فعند ذلك قالوا: ﴿يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نَكُذِّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، يتمنون أن يردوا إلى الدار الدنيا، ليعملوا عملاً صالحاً، ولا يكذبوا بآيات ربهم ويكونوا من المؤمنين. قال الله تعالى: ﴿بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ﴾ أى: بل ظهر لهم حينئذ ما كانوا يخفون فى أنفسهم من الكفر والتكذيب والمعاندة، وإن أنكروها فى الدنيا أو فى الآخرة، كما قال قبل هذا بيسير: ﴿لَمْ تَكُنْ فَتَسْمِعُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾. انظر كيف كذبوا على أنفسهم. ويحتمل أنهم ظهر لهم ما كانوا يعلمونه من أنفسهم من صدق ما جاءتهم به الرسل فى الدنيا، وإن كانوا يظهرون لاتباعهم خلافه، كما قال تعالى مخبراً عن موسى أنه قال لفرعون: ﴿لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَافِرٍ﴾ الآية [الإسراء: ١٠٢]. وقال تعالى مخبراً عن فرعون وقومه: ﴿وَجَعَلُوا بِهَا أَسْتِقْنَتَهَا أَنفُسَهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤]. ويحتمل أن يكون المراد بهؤلاء: المنافقون الذين كانوا يظهرون للناس الإيمان ويطنون الكفر، ويكون هذا إخباراً عما يكون يوم القيامة من كلام طائفة من الكفار، ولا ينافى هذا كون هذه السورة مكية، والنفاق إنما كان من بعض أهل المدينة ومن حولها من

الأعراب، وقد ذكر الله وقوع النفاق في سورة مكية وهى العنكبوت، فقال: ﴿وَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلْيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ [العنكبوت: ١١]؛ وعلى هذا فيكون هذا إخباراً عن حال المنافقين فى الدار الآخرة، حين يعاينون العذاب، فظهر لهم حينئذ غيب ما كانوا يبطنون من الكفر والنفاق والشقاق، والله أعلم.

وأما معنى الإضراب فى قوله: ﴿بَلْ بَدَأَ لَهُمْ﴾ فهُمْ ما طلبوا العود إلى الدنيا رغبة ومحبة فى الإيمان، بل خوفاً من العذاب الذى عاينوه جزاء على ما كانوا عليه من الكفر، فسألوا الرجعة إلى الدنيا ليتخلصوا عما شاهدوا من النار؛ ولهذا قال: ﴿وَتَوَرَّدُوا لِعَادُوا لِمَا نَهَوْا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ أى: فى تمنيتهم الرجعة رغبة ومحبة فى الإيمان.

ثم قال مخبراً عنهم: إنهم لو ردوا إلى الدار الدنيا، لعادوا لما نهوا عنه من الكفر والمخالفة ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ أى: فى قولهم: ﴿يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نَكْذِبُ بآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، ﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ أى: لعادوا لما نهوا عنه، وقالوا: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا﴾ أى: ما هى إلا هذه الحياة الدنيا، لا معاد بعدها؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾.

ثم قال: ﴿وَتَوَرَّيْ إِذْ وَقَفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ أى: أوقفوا بين يديه ﴿قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾ أى: أليس هذا المعاد بحق وليس باطل كما كنتم تظنون؟ ﴿قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أى: بما كنتم تكذبون به، فذوقوا اليوم مسه ﴿أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ [الطور: ١٥].

﴿قَدْ حَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَحْسِرُنَا عَلَىٰ مَا فَرَطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أوزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ﴾ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهُوَ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ رَبَّنَا﴾

يقول تعالى مخبراً عن حسارة من كذب بقاء الله، وعن خيبته إذا جاءته الساعة بغتة، وعن ندامته على ما فرط من العمل، وما أسلف من فيج الفعل؛ ولهذا قال: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتُنَا عَلَىٰ مَا فَرَطْنَا فِيهَا﴾ وهذا الضمير يحتمل عودته على الحياة وعلى الأعمال، وعلى الدار الآخرة، أى: فى امرها. وقوله: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أوزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ﴾ أى: يحملون. وقال قتادة: يعملون. وقوله: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهُوَ﴾ أى: إنما غالبها كذلك ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

﴿قَدْ نَعَلِمُ إِنَّهُ لِيَحْزَنَكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا بِكَذِبِهِ نَكَرٌ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيَّاتَتْ اللَّهُ يَحْمِلُونَ﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كَذَّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ أَنَّهُمْ نَصَرُوا وَلَا مَبْدَلَ لِكَلِمَتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّ الْمُرْسَلِينَ وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ امْتَمَطْتَ أَنْ تَبْلُغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بَيِّنَةٌ وَكَلِمَةٌ مِنَ اللَّهِ لِيَجْمَعَهُمْ عَلَىٰ الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣١﴾ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَعْصِمُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٢﴾

ربع

يقول تعالى مسلماً لنبية ﷺ، فى تكذيب قومه له ومخالفتهم إياه: ﴿قَدْ نَعَلِمُ إِنَّهُ لِيَحْزَنَكَ الَّذِي يَقُولُونَ﴾ أى: قد أحطنا علماً بتكذيب قومك لك، وحزنك وتأسفك عليهم ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ﴾ افاطر: ٨، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاحِعٌ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الشعراء: ٣] ﴿فَلَعَلَّكَ بَاحِعٌ

نَفْسِكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا [الكهف : ٧] . وقوله : ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ أي : لا يتهمونك بالكذب في نفس الأمر ﴿وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ أي : ولكنهم يعاندون الحق ويدفعونه بصدورهم ، كما قال علي : قال أبو جهل للنبي ﷺ : إنا لا نكذبك ، ولكن نكذب ما جئت به ، فأنزل الله : ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ . رواه الحاكم ، ثم قال : صحيح على شرط الشيخين ، ولم يخرجاه (١) .

وذكر محمد بن إسحاق ، عن الزهري ، في قصة أبي جهل حين جاء يستمع قراءة النبي ﷺ من الليل ، هو وأبو سفيان صخر بن حرب ، والأخنس بن شريق ، ولا يشعر أحد منهم بالآخر . فاستمعوها إلى الصباح ، فلما هَجَمَ الصبح تفرقوا ، فجمعتهم الطريق ، فقال كل منهم للآخر : ما جاء بك ؟ فذكر له ما جاء له ، ثم تعاهدوا ألا يعودوا ، لما يخافون من علم شباب قريش بهم ، لئلا يفتنوا بمجيئهم ، فلما كانت الليلة الثانية جاء كل منهم ظناً أن صاحبيه لا يجيئان ، لما تقدم من العهود ، فلما أصبحوا جمعتهم الطريق ، فتلاوموا ، ثم تعاهدوا ألا يعودوا . فلما كانت الليلة الثالثة جازوا أيضاً ، فلما أصبحوا تعاهدوا ألا يعودوا لثلاثها ، ثم تفرقوا . فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه ، ثم خرج حتى أتى أبا سفيان بن حرب في بيته ، فقال : أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد ؟ قال : يا أبا ثعلبة ، والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها ، وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا ما يراد بها . قال الأخنس : وأنا والذي حلفت به . ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل ، فدخل عليه في بيته فقال : يا أبا الحكم ، ما رأيك فيما سمعت من محمد ؟ قال : ماذا سمعت ؟ قال تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تجأنا على الركب ، وكنا كقرسى رهان ، قالوا : منا نبي يأتيه الوحي من السماء ، فمتى ندرك هذه ؟ والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه ، قال : فقام عنه الأخنس وتركه .

وقوله : ﴿وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبِرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَنهَارُمْ نَصَرْنَا﴾ : هذه تسلية للنبي ﷺ وتعزية له فيمن كذبه من قومه ، وأمر له بالصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ، ووعد له بالنصر كما نُصروا ، وبالظفر حتى كانت لهم العاقبة ، بعد ما نالهم من التكذيب من قومهم والأذى البالغ ، ثم جاءهم النصر في الدنيا ، كما لهم النصر في الآخرة ؛ ولهذا قال : ﴿وَلَا مَبْدِلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ أي : التي كتبها بالنصر في الدنيا والآخرة لعباده المؤمنين ، كما قال : ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَإِن جُنَدُنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات : ١٧١-١٧٣] ، وقال تعالى : ﴿كُتِبَ اللَّهُ لَآعْلِينَ أَنَا رَسُولُ اللَّهِ قَرِئٌ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة : ٢١] . وقوله : ﴿وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَّبِيٍّ الْمُرْسَلِينَ﴾ أي : من خبرهم كيف نُصروا وأيدوا على من كذبهم من قومهم ، فلك فيهم أسوة بهم قدوة .

ثم قال تعالى : ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾ أي : إن كان شق عليك إعراضهم عنك ﴿فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْغِي نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ﴾ قال ابن عباس : النَّقْ : السَّرْبُ ، فتذهب فيه ﴿فَاتَّبِعْهُم بِآيَةٍ﴾ أو

(١) ورواه الترمذي (٤ / ٣-١) ، ثم رواه مسرلاً ، من رواية ناجية بن كعب ، دون ذكر «على» ، وقال : «وهذا أصح» . أي أنه رجح المرسل على الموصول . وكذلك رواه الطبري (١٣١٩٥ ، ١٣١٩٦) عن ناجية - مسرلاً . ولكن رواية الحاكم (٢ / ٣١٥ ، ٣١٦) موصولة بإسناد آخر غير إسناد الترمذي . فالواصل زيادة من نقتين ، فهي مقبولة على اليقين . وقد تعقب الذهبي تصحيح الحاكم إياه «على شرط الشيخين» بأنهما لم يخرجا لناجية شيئا . وهذا صحيح ، فإن الشيخين لم يخرجا لناجية بن كعب الأسدي شيئا . ولكنه تابعي ثقة . فالحديث صحيح ، وإن لم يكن على شرطهما .

تجعل لك سلماً في السماء فتصعد فيه فتأتيهم بآية أفضل مما أتيتهم به، فافعل. وكذا قال قتادة، والسدي، وغيرهما. وقوله: ﴿وَتَوَّأْنَا لِلَّهِ لَجْمَهُمْ عَلَى الْهَدْيِ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَتَوَّأْنَا رَبُّكَ لِأَمْنٍ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا فَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [برنس: ٩٩] قال ابن عباس في قوله: ﴿وَتَوَّأْنَا لِلَّهِ لَجْمَهُمْ عَلَى الْهَدْيِ﴾، قال: إن رسول الله ﷺ كان يحرص أن يؤمن جميع الناس ويتابعوه على الهدى، فأخبر الله أنه لا يؤمن إلا من قد سبق له من الله السعادة في الذكر الأول.

وقوله: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ أى: إنما يستجيب لدعائك يا محمد من يسمع الكلام ويعيه ويفهمه، كقوله: ﴿لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [يس: ٧٠]، وقوله: ﴿وَالْمَوْتَى يَعْتَمِدُ اللَّهُ بِعَنَى بِذَلِكَ الْكُفَّارِ؛ لِأَنَّهُمْ مَوْتَى الْقُلُوبِ، فَشَبَّهَهُمُ اللَّهُ بِالْمَوْتِ الْأَجْسَادِ، فَقَالَ: ﴿وَالْمَوْتَى يَعْتَمِدُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ وهذا من باب التهكم بهم، والإزاء عليهم.

﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ آيَةً وَلَٰكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾
وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿١﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صَمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأِ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢﴾

يقول تعالى مخبراً عن المشركين أنهم كانوا يقولون: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ أى: خارق على مقتضى ما كانوا يريدون، وما يتعتون كما قالوا: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَنْفِرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنُوعًا﴾ [الآيات (الإسراء: ٩٠)]. ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يُنْزِلَ آيَةً وَلَٰكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أى: هو تعالى قادر على ذلك، ولكن حكمته تعالى تقتضى تأخير ذلك؛ لأنه لو أنزلها وفق ما طلبوا ثم لم يؤسوا، لعاجلهم بالعقوبة، كما فعل بالأمم السالفة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا نُوحًا نَافِثَةً مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: ٥٩]، وقال تعالى: ﴿إِنْ نَشَأْ نُزِّلَ عَلَيْهِ مِنَ السَّمَاءِ آيَةٌ فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ [الشعراء: ٤٤].

وقوله: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ﴾ قال مجاهد: أى أصناف مُصَنَّفَةٌ تُعْرَفُ بِأَسْمَائِهَا. وقال قتادة: الطير أمة، والإنس أمة، والجن أمة. وقوله: ﴿مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أى: الجميع علمهم عند الله، ولا ينسى واحداً من جميعها من رزقه وتدييره، سواء كان برياً أو بحرياً، كما قال: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَىٰ اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعُهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [هود: ٦] أى: مُفَصَّحٌ بِأَسْمَائِهَا وَأَعْدَادِهَا وَمِظَانِهَا، وَحَاصِرٌ لِحَرَكَاتِهَا وَسَكَاتِهَا، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَاتِبِينَ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [العنكبوت: ٦٠].

وقوله: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾: روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: حَشَرُهَا الْمَوْتُ. وكذا رواه ابن جرير والقول الثانى: إن حشرها هو بعثها يوم القيامة، لقوله: ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ [التكوير: ٥]. وروى الإمام أحمد عن أبي ذرٍّ: أن رسول الله ﷺ رأى شاتين تنتطحان، فقال: «يا أبا ذر، هل تدري فيم تنتطحان؟» قال: لا. قال: «لكن الله يدرى، وسيقتضى بينهما». ورواه ابن جرير، وزاد:

قال أبو ذر: ولقد تركنا رسول الله ﷺ وما يقَلَّب طائر جناحيه في السماء إلا ذكر لنا منه علماً (١). وروى عبد الرزاق عن أبي هريرة في قوله: ﴿إِلَّا أُمَّةً أَمَّاكُمْ مَا هُوَ طَائِرٌ فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِنِّي رَأَيْتُهُمْ يُحْشَرُونَ﴾ قال: يحشر الخلق كلهم يوم القيامة، البهائم والدواب والطيور وكل شيء، فيبلغ من عدل الله يومئذ أن يأخذ للجَمَاء من القرناء. قال: ثم يقول: كوني تراباً، فلذلك يقول الكافر: ﴿يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تَرَابًا﴾ [النبا: ٤٠] (٢).

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمُّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ أي: مثلهم في جهلهم وقلة علمهم وعدم فهمهم كمثل أصم - وهو الذي لا يسمع - أبكم - وهو الذي لا يتكلم - وهو مع هذا في ظلام لا يبصر، فكيف يهتدى مثل هذا إلى الطريق، أو يخرج مما هو فيه؟! كما قال تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْفَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يَبْصُرُونَ. صُمُّ بَكْمٌ عَمَى فَبُهِمٌ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٧، ١٨] ، وكما قال تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكِدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ [النور: ٤٠] ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأِ يُجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي: هو المتصرف في خلقه بما يشاء.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَنْتُمْ السَّاعَةُ أَعْبَرِ اللَّهُ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١) بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ (٢) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَآخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ (٣) فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٤) فَلَمَّا نَسُوا مَا دُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ (٥) فَقُطِعَ دَائِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٦)

يخبر تعالى أنه الفعال لما يريد ، المتصرف في خلقه بما يشاء ، وأنه لا معقب لحكمه ، ولا يقدر أحد على صرف حكمه عن خلقه، بل هو وحده لا شريك له، الذي إذا سئل يجيب لمن يشاء؛ ولهذا قال: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَنْتُمْ السَّاعَةُ﴾ أي: أتاكم هذا أو هذا ؟ ﴿أَعْبَرِ اللَّهُ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي: لا تدعون غيره لعلمكم أنه لا يقدر أحد على دفع ذلك سواء ؛ ولهذا قال: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي: في اتخاذكم آلهة معه ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ أي: في وقت الضرورة لا تدعون أحداً سواه وتذهب عنكم أصنامكم وأننادكم كما قال: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضَّرُّ فِي

(١) المسند (٥/ ١٥٣، ١٦٢ حلى) . والطبرى (١٣٢٢٣ ، ١٣٢٢٤) . وفي أسانيدنا ضعف ، بالانقطاع أو إيهام بعض الرواة . ولكن قول أبي ذر في آخره - ثابت من وجه آخر صحيح . فرواه ابن حبان في صحيحه : ٦٤ بتحقيقنا عن أبي ذر ، قال : « تركنا رسول الله ﷺ وما طائر يطير بجناحيه إلا عندنا منه علم » . وانظر تمة التخریج فی تفسیر الطبری (١١ / ٥٩٠) ، رقم (٨) . ومجمع الزوائد (٨ / ٢٦٣ ، ٢٦٤) .

(٢) إسناده عبد الرزاق إسناده صحيح . وكذلك رواه الطبرى (١٣٢٢٢) من طريق عبد الرزاق . ورواه الحاكم (٢ / ٣١٦) من طريق عبد الرزاق أيضاً ، وصححه على شرط مسلم ، ووافقه الذهبي . وهو موقوف على أبي هريرة . ومعناه ثابت صحيح مرفوعاً : فروى أحمد في المسند (٣ / ٧٢) عن أبي هريرة . قال : قال رسول الله ﷺ : « لنؤذن المحقوق إلى أهلها يوم القيامة ، حتى يقتص للشاة الجماء من الشاة القرناء تنطحها » . وقد مضت الإشارة إلى هذا المرفوع (ص ٤٦٦) و « الجماء » : التي لا قرن لها . و « القرناء » ذات القرن .

الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ لِإِيَّاهُ ﴿الآية [الإسراء: ٦٧] .

وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْأَسَاءِ﴾ يعني: الفقر والضييق في العيش ﴿وَالضَّرَاءِ﴾ وهي الأمراض والأسقام والآلام ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ أى: يدعون الله ويتضرعون إليه ويخشعون، قال الله تعالى: ﴿قُلُوا إِذَا جَاءَهُمْ بِأَسَأٌ تَضَرَّعُوا﴾ أى: فهلا إذا ابتليناهم بذلك تضرعوا إلينا وتمسكوا لدينا ﴿وَتَكُن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أى: ما رقت ولا خشعت ﴿وَزَيَّنَّ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أى: من الشرك والمعاصى .

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ أى: أعرضوا عنه وتناسوه وجعلوه وراء ظهورهم ﴿فَتَحْنًا عَلَيْهِمْ أَبْوَابُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أى: فتحننا عليهم أبواب الرزق من كل ما يختارون، وهذا استدراج منه تعالى وإملاء لهم، عياداً بالله من مكروه؛ ولهذا قال: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا﴾ أى: من الأموال والأولاد والأرزاق ﴿أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً﴾ أى: على غفلة ﴿فَإِذَا هُمْ مُبْسُونَ﴾ أى: آيسون من كل خير. قال ابن عباس: الملبس: الآيس. قال الحسن البصرى: من وسع الله عليه فلم ير أنه يمكر به، فلا رأى له. ومن قتر عليه فلم ير أنه ينظر له، فلا رأى له، ثم قرأ: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْسُونَ﴾ قال الحسن: مكر بالقوم ورب الكعبة؛ أعطوا حاجتهم ثم أخذوا. رواه ابن أبي حاتم. وقال قتادة: بَغَتْ القوم أمر الله، وما أخذ الله قوماً قط إلا عند سكرتهم وعرثتهم ونعمتهم، فلا تغتروا بالله، إنه لا يغتر بالله إلا القوم الفاسقون. رواه ابن أبي حاتم أيضاً. وقد روى الإمام أحمد عن عُبَيْدِ بْنِ عَامِرٍ، عن النبی ﷺ قال: «إِذَا رَأَيْتَ اللَّهَ يُعْطِي الْعَبْدَ مِنَ الدُّنْيَا عَلَىٰ مَعْاصِيهِ مَا يُحِبُّ، فَإِنَّمَا هُوَ اسْتِدْرَاجٌ». ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْسُونَ﴾. ورواه ابن جرير وابن أبي حاتم (١). وروى ابن أبي حاتم عن إبراهيم بن أبي عبلة، عن عبادة بن الصامت، أن رسول الله ﷺ كان يقول: «إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ بَقَاءً - أَوْ: نَاءً - رَزَقَهُمُ الْقَصْدَ وَالْعِصْفَ، وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ اقْتِطَاعًا فَتَحَ لَهُمْ - أَوْ: فَتَحَ عَلَيْهِمْ - بَابَ خِيَانَةٍ ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْسُونَ﴾ كما قال: ﴿فَقَطَّعَ دَابِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾». ورواه أحمد وغيره (٢).

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَمَّمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ مَنَ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ أَنْظَرُ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَصْدِقُونَ﴾ ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَدَابُ اللَّهِ بَعْتَهُ أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿وَمَا تُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَسْمِئُهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾

يقول تعالى لرسوله ﷺ: قل لهؤلاء المكذبين المعاندين: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ﴾ أى:

(١) المسند (١٧٣٨٢) والطبرى (١٣٢٤٠، ١٣٢٤١). وفى إسناد أحمد: «رشدين بن سعد» وهو ضعيف. وإسنادا الضرى لا بأس بهما، فهما يشدان من رواية رشدين، ويكونان شاهدين له. خصوصا وأن ضعف وشدين إنما هو من قبل حفظه وتخليطه فى بعض ما يروى، ولكنه كان رجلا صالحا.

(٢) إسناده منقطع بين إبراهيم بن أبي عبلة وعبادة بن الصامت دهر طويل! وقوله هنا: «ورواه أحمد وغيره» ثبت فى المطبوعة فقط، ولم يذكر فى المخطوطتين. وإبائه - فى رأى - خطأ. فالحديث ليس فى المسند على اليقين. وقد ذكره السيوطى (٣ / ١٢)، ونسبه لابن أبي حاتم رأى الشيخ وابن مردويه، فقط.

سلبكم إياها كما أعطاكموها فإنه ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [الملك: ٢٣]. ويحتمل أن يكون هذا عبارة عن منع الانتفاع بهما النفع الشرعي؛ ولهذا قال: ﴿ وَخَمَّ عَلَى قُلُوبِكُمْ ﴾ كما قال: ﴿ أَمْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ ﴾ ا بونس: ٣١ ، وقال: ﴿ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ ﴾ [الأنفال: ٢٤]. وقوله: ﴿ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ ﴾ أى: هل أحد غير الله يقدر على رد ذلك إليكم إذا سلبه الله منكم؟ لا يقدر على ذلك أحد سواه؛ ولهذا قال: ﴿ أَنْظِرْ كَيْفَ نَصَرَفَ الْآيَاتِ ﴾ أى: نبينها ونوضحها ونفسرها، دالة على أنه لا إله إلا الله، وأن ما يعبدون من دونه باطل وضلال ﴿ ثُمَّ هُمْ يَصُدُّونَ ﴾ أى: ثم هم مع هذا البيان يعرضون عن الحق، ويصدون الناس عن اتباعه. قال ابن عباس ﴿ يَصُدُّونَ ﴾ يعدلون. وقال مجاهد، وقتادة: يعرضون. وقال السدي: يصدون.

وقوله: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابَ اللَّهِ بَعْتُمْ ﴾ أى: وأنتم لا تشعرون به حتى بعتكم وفجأكم ﴿ أَوْ جَهَنَّمَ ﴾ أى: ظاهراً عياناً ﴿ هَلْ يَهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ ﴾ أى: إنما كان يحيط بالظالمين أنفسهم بالشرك بالله، وينجو الذين كانوا يعبدون الله وحده لا شريك له، فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون. كما قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ [الأنعام: ٨٢]. وقوله: ﴿ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ أى: مبشرين عباد الله المؤمنين بالخيرات، ومنذرين من كفر بالله النقمات والعقوبات؛ ولهذا قال: ﴿ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ ﴾ أى: فمن آمن قلبه بما جاؤوا به وصلاح عمله باتباعه إياهم ﴿ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ أى: بالنسبة إلى ما يستقبلونه ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ أى: بالنسبة إلى ما فاتهم وتركوه وراء ظهورهم من أمر الدنيا وضيعتها، الله وليهم فيما خلفوه، وحافظهم فيما تركوه. ثم قال: ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بآيَاتِنَا يَسْتَهْمُ الْعَذَابَ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ أى: ينالهم العذاب بما كفروا بما جاءت به الرسل، وخرجوا عن أوامر الله وطاعاته، وارتكبوا من مناهيه ومحارمه وانتهاك حرمانه.

﴿ قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾ ﴿ وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُخَشِّرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وِئَاءٌ وَلَا سَفِيحٌ لِمَا هُمْ يَنْفُونَ ﴾ ﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعَدْوَىٰ وَالْعَشَىٰ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ ﴿ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴾ ﴿ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنْتُمْ مِّنْ عَمَلِكُمْ سَوَاءٌ يُجَاهِدُوا لَكُمْ وَأَصْلَحُوا فَاتَّخَذْتُمْ عَلَيْهِمْ جُحُومًا ﴾ ﴿

يقول تعالى لرسوله ﷺ: ﴿ قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ ﴾ أى: لست أملكها ولا المتصرف فيها، ﴿ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ ﴾ أى: ولا أقول لكم: إني أعلم الغيب، إنما ذلك من علم الله، عز وجل، لا أطلع منه إلا على ما أطلعني عليه ﴿ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ ﴾ أى: ولا ادعى أنني ملك، إنما أنا بشر من البشر، يوحي إلى من الله، عز وجل، شرفني بذلك، وأنعم على به؛ ولهذا قال: ﴿ إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ ﴾ أى: لست أخرج عنه قيد شبر ولا أدنى منه ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴾ أى: هل يستوى من اتبع الحق وهدى إليه، ومن ضل عنه ولم يتفكر له؟ ﴿ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾ ، وهذه كقوله تعالى: ﴿ أَفَمَنْ يَعْلَمُ

أَنَا أَنْزَلُ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ الْحَقَّ كَمَا هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولَئِكَ الْأَنْبَاءُ ﴿١٩﴾ [الرعد: ١٩] .

وقوله: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ رَبٌّ وَلَا شَفِيعٌ ﴿١٩﴾ أَي: وَأَنْذِرْ بِهَذَا الْقُرْآنِ يَا مُحَمَّدُ ﴿الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٧] وَالَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿[الرعد: ٢١] .﴾ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ ﴿أَي: يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ لَيْسَ لَهُمْ ﴿أَي: يَوْمَئِذٍ﴾ مَنْ دُونَهُ رَبِّي وَلَا شَفِيعٌ ﴿أَي: لَا قَرِيبَ لَهُمْ وَلَا شَفِيعَ فِيهِمْ مِنْ عَذَابِهِ إِنْ أَرَادَهُ بِهِمْ﴾ ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أَي: أَنْذِرْ هَذَا الْيَوْمَ الَّذِي لَا حَاكِمَ فِيهِ إِلَّا اللَّهُ، عَزَّ وَجَلَّ ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ فَيَعْمَلُونَ فِي هَذِهِ الدَّارِ عَمَلًا يَنْجِيهِمُ اللَّهُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ عَذَابِهِ، وَيُضَاعَفُ لَهُمْ بِهِ الْجَزِيلُ مِنْ ثَوَابِهِ.

وقوله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ أَي: لَا تَتَّبِعْ هَؤُلَاءِ الْمُتَصَفِّينَ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ عِنْدَكَ، بَلْ اجْعَلْهُمْ جِلْسَاءَكَ وَأَخْصَاءَكَ ، كَمَا قَالَ: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تَطْعَمْ مِنْ أَغْلَانِ قَلْبِهِ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبِعْ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ قُرْطًا﴾ [الكهف: ٢٨] . وقوله: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ أَي: يَعْبُدُونَهُ وَيَسْأَلُونَهُ ﴿بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ قَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيْبِ، وَمُجَاهِدٌ، وَالْحَسَنُ، وَقَتَادَةُ: الْمُرَادُ بِذَلِكَ الصَّلَاةُ الْمَكْتُوبَةُ . وَهَذَا كَقَوْلِهِ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠] أَي: أَتَقْبَلُ مِنْكُمْ . وَقَوْلُهُ: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ أَي: يُرِيدُونَ بِذَلِكَ الْعَمَلِ وَجْهَ اللَّهِ الْكَرِيمِ، فَيَهْمُ مَخْلُصُونَ فِيمَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْعِبَادَاتِ وَالطَّاعَاتِ . وَقَوْلُهُ: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ كَقَوْلِ نُوْحٍ، عَلَيْهِ السَّلَامُ، فِي جَوَابِ الَّذِينَ قَالُوا: ﴿أَنْتُمْ لَكُمْ وَأَتَمَعْتُمُ الْأَرْضَ الَّذِينَ قَالُوا: وَمَا عَلَيْنَا يَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْرَهُونَ﴾ [الشعراء: ١١١ - ١١٣] ، أَي: إِنَّمَا حِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ، عَزَّ وَجَلَّ، وَلَيْسَ عَلَيْنَا مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ، كَمَا أَنَّهُ لَيْسَ عَلَيْهِمْ مِنْ حِسَابِي مِنْ شَيْءٍ .

وقوله: ﴿فَطَرَدَهُمْ فَتَكُونُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أَي: إِنْ فَعَلْتَ هَذَا وَالحَالَةَ هَذِهِ . رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: مَرَّ الْمَلَأُ مِنْ قُرَيْشٍ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَعِنْدَهُ: حِيَابٌ، وَصَهْبٌ ، وَبِلَالٌ ، وَعِمَارٌ . فَقَالُوا: يَا مُحَمَّدُ ، أَرْضَيْتَ بِهَؤُلَاءِ؟ فَتَزَلَّ فِيهِمُ الْقُرْآنُ: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ . وَرَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: مَرَّ الْمَلَأُ مِنْ قُرَيْشٍ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَعِنْدَهُ: صَهْبٌ، وَبِلَالٌ، وَعِمَارٌ، وَحِيَابٌ، وَغَيْرُهُمْ مِنْ ضَعْفَاءِ الْمُسْلِمِينَ، فَقَالُوا: يَا مُحَمَّدُ، أَرْضَيْتَ بِهَؤُلَاءِ مِنْ قَوْمِكَ؟ أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ مِنْ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا؟ أَنْحُنْ نَصِيرٌ تَبِعًا لَهُؤُلَاءِ؟ أَطَرَدَهُمْ عِنْدَكَ، فَلَعَلَّكَ إِنْ طَرَدْتَهُمْ أَنْ تَتَّبِعَكَ! فَتَزَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ﴾ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ (١) . وَعَنْ سَعْدِ قَالَ: تَزَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي سِتَّةٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ ، مِنْهُمْ ابْنُ مَسْعُودٍ، قَالَ: كُنَّا نَسْبِقُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَنَدْنُو مِنْهُ وَنَسْمَعُ مِنْهُ، فَقَالَتْ قُرَيْشٌ: يَدْنِي هَؤُلَاءِ دُونَنَا! فَتَزَلَّتْ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ . رَوَاهُ الْحَاكِمُ ، وَقَالَ: عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ . وَأَخْرَجَهُ ابْنُ حِبَانَ فِي صَحِيحِهِ (٢) .

(١) المسند (٣٩٨٥) والطبري (١٣٢٥٥) ، وإسنادهما صحيحان . وتفصيل التخريج هناك في الموضوعين .

(٢) المستدرک (٣/٣١٩) ووافقه الذهبي على تصحيحه . وهو في الحقيقة لا يستدرک على الشيخين : فقد رواه مسلم (٢٤٠/٢) بولاق) بنحوه . ورواه أيضا الطبري (١٣٢٦٣) . واللفظ الذي أورده الحفاظ ابن كثير هنا ، هو لفظ الطبري . وقد خرجه السيوطي (٣/١٣) ونسبه أيضا لأحمد . وقلت في تمة التخريج في الطبري (١١/٥٩٠) : لم أجد في المسند، في مسند سعد بن أبي وقاص، إلا أن يكون الإمام أحمد رواه أثناء مسند صاحبي آخر، فخطى على موضعه . وكان سعد بن أبي وقاص - راوي الحديث - أحد هؤلاء الستة أيضا، كما في روايتي مسلم والحاكم .

وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ أي: ابتليتنا واختبرنا وامتحنا بعضهم ببعض ﴿لِيَقُولُوا أَهْؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾ وذلك أن رسول الله ﷺ كان غالباً من اتبعه في أول البعثة، ضعفاء الناس من الرجال والنساء والعبيد والإماء، ولم يتبعه من الأشراف إلا قليل، كما قال قوم نوح لنوح: ﴿رَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّي الرَّأْيِ﴾ الآية [هود: ٢٧]، وكما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان حين سأله عن تلك المسائل، فقال له: فهل اتبعه ضعفاء الناس أو أشرافهم؟ فقال: بل ضعفاؤهم. فقال: هم أتباع الرسل .

والغرض: أن مشركي قريش كانوا يسخرون بمن آمن من ضعفائهم، ويعذبون من يقدرون عليه منهم، وكانوا يقولون: ﴿أَهْؤُلَاءِ مَنْ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾؟ أي: ما كان الله ليهدى هؤلاء إلى الخير - لو كان ما صاروا إليه خيراً - ويدعنا، كما قالوا: ﴿لَوْ كَان خَيْرًا مَا سَبَقْنَا إِلَيْهِ﴾ [الاحقاف: ١١]، وكما قال تعالى: ﴿وَإِذَا تَلَّى عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا بَيَّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ [مریم: ٧٣] . قال الله تعالى في جواب ذلك: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَانًا وَرِءْيَا﴾ [مریم: ٧٤] ، وقال في جوابهم حين قالوا: ﴿أَهْؤُلَاءِ مَنْ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾ - ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ أي: أليس هو أعلم بالشاكرين له بأقوالهم وضمائرهم، فيوفقههم ويهديهم سبيل السلام، ويخرجهم من الظلمات إلى النور، ويهديهم إليه صراطاً مستقيماً، كما قال: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المنكوت: ٦٩] . وفي الحديث الصحيح: «إن الله لا ينظر إلى صوركم، ولا إلى ألوانكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»^(١).

وقوله: ﴿وَإِذَا جَاءَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي: فأكرمهم برد السلام عليهم، وبشّرهم برحمة الله الواسعة الشاملة لهم؛ ولهذا قال: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ أي: أوجبها على نفسه الكريمة، تفضلاً منه وإحساناً وامتناناً ﴿أَنَّهُ مِنْ عَمَلٍ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ﴾، قال بعض السلف: كل من عصى الله فهو جاهل. وقال عكرمة: الدنيا كلها جهالة. رواه ابن أبي حاتم . ﴿ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ﴾ أي: رجع عما كان عليه من المعاصي، وأقلع وعزم على ألا يعود، وأصلح العمل في المستقبل ﴿فَلَنَنْفَعَنَّهُ غُفُورًا رَحِيمًا﴾ . روى الإمام أحمد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا مَقْصِيَّ اللَّهُ الْخَلْقَ، كَتَبَ فِي كِتَابٍ فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ: إِنْ رَحِمْتِي غَلَبَتْ غَضَبِي» . أخرجه في الصحيحين^(٢) . وسيأتي كثير من الأحاديث الموافقة لهذه عند قوله: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الاعراف: ١٥٦] . وما يناسب هذه الآية من الأحاديث أيضاً قوله ﷺ: لمعاذ بن جبل: «أتدرى ما حق الله على العباد؟ أن يعبدوه لا يشركوا به شيئاً» ، ثم قال: «أتدرى ما حق العباد على الله إذا هم فعلوا ذلك؟ ألا يعذبهم» . وقد رواه الإمام أحمد عن أبي هريرة^(٣) .

(١) رواه أحمد في المسند (٧٨١٤) ومسلم (٢ / ٢٨٠) - من حديث أبي هريرة ولكن فيهما: «لا ينظر إلى صوركم وأموالكم» . وكذلك مضى على الصواب عند تفسير الآية: (٢٧٥) من سورة البقرة .
(٢) المسند (٨١١٢) في صحيفة همام بن منه . وقد مضى من رواية الشيخين عند تفسير الآية: (١٢) من سورة الأنعام، وأشرنا إلى هذا هناك .

(٣) حديث معاذ مضى عند تفسير الآية: (٣٦) من سورة النساء، وخرجناه من رواية الشيخين وغيرهما . وقد رواه الإمام أحمد من حديث أنس بن مالك (١٣٧٧٨) . وهو في الحقيقة من رواية أنس عن معاذ، كما تدل عليه الروايات الأخر وأما حديث أبي هريرة فهو في المسند (٨٠٧١ ، ١٠٨٠٨ ، ١٠٩٣٦) .

﴿وَكَذَلِكَ نَقُصِّلُ الْأَيَّاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾ قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أُعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا أَنْبِئُكُمْ بِأَهْوَاءِكُمْ قَدْ صَلَّيْتُ إِذَا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقْضُ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَفُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ ﴿٥٨﴾ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبُرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلْمَةٍ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾

ربع

يقول تعالى: كما بيّنا ما تقدم بيانه من الحجج والدلائل على طريق الهداية والرشاد، وذم المجادلة والعدا - ﴿كَذَلِكَ نَقُصِّلُ الْأَيَّاتِ﴾ أى: التى يحتاج المخاطبون إلى بيانها ﴿ولِتَسْتَبِينَ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ﴾ أى: ولتظهر طريق المجرمين المخالفين للرسول، وقرئ: «ولتستبين سبيل المجرمين» أى: ولتستبين يا محمد - أو يا مخاطب - سبيل المجرمين (١).

وقوله: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾ أى: على بصيرة من شريعة الله التى أوحاها إلى ﴿وكذبتهم به﴾ أى: بالحق الذى جاءنى من الله ﴿ما عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ أى: من العذاب ﴿إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ أى: إنما يرجع أمر ذلك إلى الله إن شاء عجل لكم ما سألتموه من ذلك، وإن شاء أنظركم وأجلكم؛ لما له فى ذلك من الحكمة العظيمة؛ ولهذا قال: ﴿يَقْضُ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ أى: وهو خير من فصل القضايا، وخير الفاتحين الحاكم بين عباده. وقوله: ﴿قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَفُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ أى: لو كان مرجع ذلك به إلى، لأوقعت بكم ما تستحقونه من ذلك ﴿والله أعلم بالظالمين﴾.

فإن قيل: فما الجمع بين هذه الآية، وبين ما ثبت فى الصحيحين عن عائشة؛ أنها قالت لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟ فقال: «لقد لقيت من قومك، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة؛ إذ عرضت نفسى على ابن عبد يا ليل بن عبد كلال، فلم يجبنى إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهى، فلم أستفق إلا بقرن الثعالب، فرفعت رأسى، فإذا أنا بسحابة قد أظللتنى، فنظرت فإذا فيها جبريل، عليه السلام، فنادانى، فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم». قال: «فنادانى ملك الجبال وسلم على، ثم قال: يا محمد، إن الله قد سمع قول قومك لك، وقد بعثنى ربك إليك، لتأمرنى بأمرك، فما شئت؟ إن شئت أطبقت عليهم الأخشبين؟» فقال رسول الله ﷺ: «بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله، لا يشرك به شيئاً»، وهذا لفظ مسلم (٢). فقد عرض عليه عذابهم واستصالحهم، فاستأنى بهم، وسأل لهم التأخير، لعل الله أن يخرج من أصلابهم من لا يشرك به شيئاً. فما الجمع بين هذا، وبين قوله تعالى فى هذه الآية الكريمة: ﴿قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَفُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾؟ فالجواب - والله أعلم - : أن هذه الآية دللت على أنه لو كان إليه

(١) قراءة نصب اللام هى قراءة نافع وأبى جعفر. وقراءة الرفع هى قراءة ابن كثير وأبى عمرو وابن عامر وحفص.

(٢) مسلم (٢ / ٦٨ بولاق) والبخارى (٦ / ٢٢٤، ٢٢٥ فتح). و«باليل»: بكسر اللام الأولى. و«كلال»: بضم القاف وتخفيف اللام. و«قرن الثعالب»: هو ميثاق أهل نجد، ويقال له: قرن المنازل أيضا، وهو على يوم ليلة من مكة. و«الأخشبان»: بالحاء والشين المعجمتين: هما جبال مكة، أبو قبيس والذى يقابله.

وقوع العذاب الذي يطلبونه حال طلبهم له، لاوقعه بهم. وأما الحديث، فليس فيه أنهم سألوه وقوع العذاب بهم، بل عرض عليه ملك الجبال أنه إن شاء أطبق عليهم الأخشيين - وهما جبلا مكة اللذان يكتنفانها جنوبا وشمالا - فلهذا استأني بهم وسأل الرفق لهم .

وقوله : ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ روى البخارى عن ابن عمر؛ أن رسول الله ﷺ قال : «مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله : ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ٣٤] » (١). وفى حديث عمر : أن جبريل حين تبدى له فى صورة أعرابى فسأل عن الإسلام والإيمان والإحسان ؟ فقال له النبى ﷺ فيما قال له : « فى خمس لا يعلمهن إلا الله »، ثم قرأ : ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ الآية [لقمان: ٣٤].

وقوله : ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ أى : يحيط علمه العظيم بجميع الموجودات، برها وبحريها ، لا يخفى عليه من ذلك شىء، ولا مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء .

وقوله : ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ أى : ويعلم الحركات حتى من الجمادات، فما ظنك بالحيوانات، ولا سيما المكلفون منهم من جنهم وإنسهم ؟ كما قال تعالى : ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩] .

﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِقَاضِي أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُزْعَمُونَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ رُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَكِمِينَ ﴿٢٠﴾

يخبر تعالى أنه يتوفى عباده فى منامهم بالليل، وهذا هو التوفى الأصغر ، كما قال تعالى : ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ إِنِّي فَاعِلٌ لِّئِيَّ [آل عمران: ٥٥] ، وقال تعالى : ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي نَمَتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الزمر: ٤٢] ، يذكر فى هذه الآية الوفاتين : الكبرى والصغرى، وهكذا ذكر فى هذا المقام حكم الوفاتين الصغرى ثم الكبرى، فقال : ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾ أى : ويعلم ما كسبتم من الأعمال بالنهار . وهذه جملة معترضة دلت على إحاطة علمه تعالى بخلفه فى ليلهم ونهارهم، فى حال سكونهم وفى حال حركتهم، كما قال : ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ [الرعد: ١٠] ، وكما قال تعالى : ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ أى : فى الليل ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ [القصص: ٧٣] ، أى : فى النهار، كما قال : ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ نِيَابًا . وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ [النبا: ١٠ ، ١١] ؛ ولهذا قال تعالى هاهنا : ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾ أى : كسبتم بالنهار ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ أى : فى النهار . قاله مجاهد ، وقتادة ، والسدى . وقال ابن جريج ، عن عبد الله بن كثير : أى فى المنام . والأول أظهر . وقوله : ﴿لِقَاضِي أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ يعنى به : أجل كل واحد واحد من الناس ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ أى : يوم القيامة

(١) البخارى (٨ / ٢١٩ فتح) . ورواه أحمد مرارا ، منها : (٤٧٦٦) وسيدكره الحافظ ابن كثير فيما يأتى ، عند تفسير الآية (٣٤) من سورة لقمان - من رواية المسند وغيره . ورواه - بنحوه - ابن حبان فى صحيحه (٦٩ ، ٧٠) بتحقيقنا ، وفضلنا تخريجها هناك .

﴿ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ ﴾ أى : فيخبركم ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أى : ويجزيكم على ذلك إن خيراً فخير، وإن شراً فشر .
 وقوله : ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ﴾ أى : هو الذى قهر كل شىء، وخضع لجلاله وعظمته وكبريائه كل شىء ﴿ وَيُرْسِلْ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً ﴾ أى : من الملائكة يحفظون بدن الإنسان، كما قال : ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ يَمِينِهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ [الرعد: ١١] ، وحفظة يحفظون عمله ويحصونه عليه، كما قال : ﴿ وَإِن عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ . كَرَامًا كَاتِبِينَ . يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الانقطار: ١٠ - ١٢] وقال : ﴿ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ . مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق: ١٧، ١٨] . وقوله : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ ﴾ أى : احتضر وحان أجله ﴿ تَوَفَّاهُ رُسُلُنَا ﴾ أى : ملائكة موكلون بذلك . وقوله : ﴿ وَهُمْ لَا يُفْرَطُونَ ﴾ أى : فى حفظ روح المتوفى، بل يحفظونها وينزلونها حيث شاء الله، عز وجل، إن كان من الأبرار ففى عليين، وإن كان من الفجار ففى سجين، عيادا بالله من ذلك .

وقوله : ﴿ ثُمَّ رُدُّوْا ﴾ قال ابن جرير: يعنى: الملائكة ﴿ إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقُّ ﴾ . ونذكر هاهنا الحديث الذى رواه الإمام أحمد عن أبى هريرة عن النبى ﷺ أنه قال: « إن الميت تحضره الملائكة، فإذا كان الرجل الصالح قالوا: اخرجى أيتها النفس الطيبة كانت فى الجسد الطيب، اخرجى حميدة، وأشرى بروح وريحان، ورب غير غضبان، فلا تزال يقال لها ذلك حتى تخرج، ثم يعرج بها إلى السماء فيستفتح لها، فيقال: من هذا؟ فيقال: فلان، فيقال: مرحبا بالنفس الطيبة كانت فى الجسد الطيب، ادخلى حميدة، وأشرى بروح وريحان ورب غير غضبان . فلا تزال يقال لها ذلك حتى ينتهى بها إلى السماء التى فيها الله عز وجل . وإذا كان الرجل السوء ، قالوا: اخرجى أيتها النفس الخبيثة، كانت فى الجسد الخبيث، اخرجى ذميمة وأشرى بحميم وعساق، وآخر من شكله أزواج، فلا تزال يقال لها ذلك حتى تخرج، ثم يعرج بها إلى السماء، فيستفتح لها، فيقال: من هذا؟ فيقال: فلان، فيقال: لا مرحبا بالنفس الخبيثة كانت فى الجسد الخبيث، ارجعى ذميمة، فإنه لا يفتح لك أبواب السماء . فترسل من السماء ، ثم تصير إلى القبر، فيجلس الرجل الصالح فيقال له شئ ما قيل فى الحديث الأول، ويجلس الرجل السوء فيقال له مثل ما قيل فى الحديث الأول . هذا حديث غريب ^(١) .

ويحتمل أن يكون المراد بقوله : ﴿ ثُمَّ رُدُّوْا ﴾ يعنى : الخلائق كلهم إلى الله يوم القيامة، فيحكم فيهم بعدله، كما قال : ﴿ قُلْ إِنِّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ . لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [الراقة: ٤٩، ٥٠] ، وقال : ﴿ وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نَغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ إلى قوله : ﴿ وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٤٧، ٤٩] ؛ ولهذا قال : ﴿ مَوْلَاهُمْ الْحَقُّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ﴾ .

﴿ قُلْ مَنْ يَسْتَحْيِكُمْ مِّنْ ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّيِّنًا أَجَنَّا مِنْ هَذِهِ . لَتَكُونَنَّ مِنَ

(١) المسند (٨٧٥٤) . وإسناده صحيح . ورواه الطبرى - بنحوه - بإسنادين (١٤٦١٥ ، ١٤٦١٦) . وسيذكر الحافظ المؤلف ، عند الآية (٤٠) من سورة الأعراف من رواية الطبرى ، ونسبه هناك لأحمد والنسائى وابن ماجه . ولم أجد وجهاً لحكم الحافظ ابن كثير هنا على هذا الحديث بأنه « غريب » ! فإن إسناد الإمام أحمد صحيح عى شرط الشيخين، وكذلك الإسناد الثانى عند الطبرى ، إلا شيخه « محمد بن عبد الله بن عبد الحكم » فإنه لم يرو له الشيخان ، ولكنه إمام ثقة لا خلاف فيه . وليس فى متن الحديث شىء من الغرابة أو المخالفة لأدلة أخرى .

الشَّاكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ اللَّهُ يَنْجِيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا وَيُدْبِقَ بَعْضُكُم بِأَسْبَعْضٍ أَنْظُرْ كَيْفَ نَصَّرِفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُوْنَ ﴿٦٥﴾

يقول تعالى ممثنا على عباده في إنجائه المضطرين منهم ﴿مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ أى : الحائرين الواقعين فى المهامه البرية، واللجج البحرية إذا هاجت الرياح العاصفة، فحينئذ يَفْرَدُونَ الدُّعَاءَ له وحده لا شريك له، كما قال : ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مِنْ تَدْعُوْنَ إِلَىٰ آيَاهُ فَلَمَّا نَجَّكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٧] ، وقال تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي يَسِّرُكُمُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِن أُجِيبْنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونُنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [يونس: ٢٢] ، وقال تعالى : ﴿أَمْ نَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتٍ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلِ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَلَيْسَ اللَّهُ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل: ٦٣] . وقال فى هذه الآية الكريمة : ﴿قُلْ مَنْ يَنْجِيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ أى : جهراً وسراً ﴿لَئِن أُنْجَيْنَا مِنْ هَذِهِ﴾ أى : من هذه الضائقة ﴿لَنَكُونُنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ أى : بعدها، قال الله تعالى : ﴿قُلِ اللَّهُ يَنْجِيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ﴾ أى : بعد ذلك ﴿تُشْرِكُونَ﴾ أى : تَدْعُونَ معه فى حال الرفاهية آلهة أخرى .

وقوله : ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ لما قال : ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ عقبه بقوله : ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا﴾ أى : بعد إنجائه إياكم، كما قال فى سورة سبحان : ﴿رَبُّكُمُ الَّذِي يُرْسِلُ لَكُمْ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهٗ كَانَ بَكُمْ رَحِيمًا . وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مِنْ تَدْعُوْنَ إِلَىٰ آيَاهُ فَلَمَّا نَجَّكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا . أَفَأَنْتُمْ أَنْ يَخْصِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وِكِيلًا . أَمْ أَنْتُمْ أَنْ يَعْبُدُكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيْحِ فَيَفْرِقِكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيْعًا﴾ [الإسراء: ٦٦ - ٦٩] .

قال البخارى فى قوله : ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ﴾ الآية : ﴿يَلْبِسَكُمْ﴾ : يَخْلُطُكُمْ، من الالتباس، يَلْبَسُوا: يَخْلُطُوا. ﴿شِيْعًا﴾ : فرقاً. ثم روى عن جابر بن عبد الله قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ﴾ ، قال رسول الله ﷺ : «أعوذ بوجهك» ﴿أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ قال : «أعوذ بوجهك» ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا وَيُدْبِقَ بَعْضُكُمْ بِأَسْبَعْضٍ﴾ ، قال رسول الله ﷺ : «هذا أهون - أو قال : هذا أيسر» . ورواه النسائى ، والحميدى فى مسنده ، وابن حبان فى صحيحه ، وابن جرير ، وابن مردويه وسعيد بن منصور (١) . وروى الإمام أحمد عن سعد بن أبى وقاص، قال : أقبلنا مع رسول الله ﷺ ، حتى مررنا على مسجد بنى معاوية، فدخل فصلى ركعتين، فصلينا معه ، فتأجج ربه ، عز وجل ، طويلاً ، ثم قال : «سألت ربي ثلاثاً : سألته ألا يهلك أمتى بالغرق، فأعطانيها . وسألته ألا يهلك أمتى بالسنة ، فأعطانيها . وسألته ألا يجعل بأسهم بينهم ، فمنعنيها» . انفراد بإخراجه مسلم (٢) . وروى الإمام أحمد عن جابر بن عتيك ؛ أنه قال : جاءنا عبد الله ابن عمر فى حرّة بنى معاوية - قرية من قرى الأنصار - فقال لى : هل تدرى أين صلى رسول الله ﷺ

(١) البخارى (٨ / ٢١٩ فتح) والطبرى (١٣٣٦٥ ، ١٣٣٦٦ ، ١٣٣٧٢) .

(٢) المسند (١٥١٦ ، ١٥١٤) ومسلم (٢ / ٣٦٣ بولاق) .

في مسجدكم هذا؟ فقلت: نعم. فأشرت إلى ناحية منه، فقال: هل تدري ما الثلاث التي دعا بهنّ فيهم؟ فقلت: نعم. قال: فأخبرني بهن، فقلت: دعا بأن لا يُظْهَر عليهم عدواً من غيرهم، ولا يهلكهم بالسنين، فأعطيهم، ودعا بأن لا يجعل بأسهم بينهم، فَمَنَعَهَا. قال: صدقت، فلا يزال الهَرَج إلى يوم القيامة». ليس هو في شيء من الكتب الستة، وإسناده جيد قوى، والله الحمد والمنة (١).

وروى الإمام أحمد عن معاذ بن جبل قال: أتيت رسول الله ﷺ أطلبه فقبل لي: خرج قبلُ. قال: فجعلت لا أمر بأحد إلا قال: مر قبلُ. حتى مررت فوجدته قائماً يصلي. قال: فجئت حتى قمت خلفه، قال: فأطال الصلاة، فلما قضى الصلاة، قلت: يا رسول الله، لقد صليت صلاة طويلة؟ فقال رسول الله ﷺ: «إني صليت صلاة رغبة ورهبة، سألت الله، عز وجل، ثلاثاً فأعطاني اثنين، ومنعني واحدة. سألته ألا يهلك أمتي غرقاً، فأعطانيها. وسألته ألا يُظْهَر عليهم عدواً ليس منهم، فأعطانيها. وسألته ألا يجعل بأسهم بينهم، فردها عليّ». ورواه ابن ماجه. ورواه ابن مردويه بمثله أو نحوه (٢). وروى الإمام أحمد عن أنس بن مالك أنه قال: رأيت رسول الله ﷺ في سفر صلى سُبْحَةَ الضحى ثمانى ركعات. فلما انصرف قال: «إني صليت صلاة رغبة ورهبة، سألت ربي ثلاثاً فأعطاني اثنين ومنعني واحدة: سألته ألا يتلى أمتي بالسنين، ففعل. وسألته ألا يظهر عليهم عدوهم، ففعل. وسألته ألا يلبسهم شيعاً، فأبى عليّ». ورواه النسائي (٣). وروى الإمام أحمد عن خباب بن الارت، مولى بنى زُهرة، وكان قد شهد بدرأ مع رسول الله ﷺ، أنه قال: راقبت رسول الله ﷺ في ليلة صلاها كلها، حتى كان مع الفجر فلم يركب رسول الله ﷺ من صلاته، فقلت: يا رسول الله، لقد صليت الليلة صلاة ما رأيتك صليت مثلها؟ فقال رسول الله ﷺ: «أجل، إنها صلاة رَغَبٍ ورَهَبٍ. سألت ربي، عز وجل، فيها ثلاث خصال، فأعطاني اثنين ومنعني واحدة: سألت ربي، عز وجل، ألا يهلكنا بما أهلك به الأمم قبلاً، فأعطانيها. وسألت ربي، عز وجل، ألا يظهر علينا عدواً من غيرنا، فأعطانيها. وسألت ربي، عز وجل، ألا يلبسنا شيعاً، فمَنَعَهَا». ورواه النسائي وابن حبان في صحيحه، والترمذي وقال: حسن صحيح (٤).

وروى الإمام أحمد عن شَداد بن أوس؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله زَوَى لي الأرض حتى رأيت مشارقها ومغاربها، وإن مُلِّك أمتي سبيلغ ما زَوَى لي منها، وإنى أعطيت الكنزَيْن الأبيض والأحمر، وإنى سألت ربي، عز وجل، ألا يهلك أمتي بسنة بعامه وألا يسلط عليهم عدواً فيهلكهم بعامه، وألا يلبسهم شيعاً، وألا يذيق بعضهم بأس بعض. فقال: يا محمد، إنى إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد. وإنى قد أعطيتك لأمتك ألا أهلكتهم بسنة بعامه، وألا أسلط عليهم عدواً ممن سواهم فيهلكهم بعامه، حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً، وبعضهم يقتل بعضاً، وبعضهم يسبى بعضاً». قال: وقال

(١) السند (٤٤٥/٥ حلى). وذكره الهيثمي في الزوائد (٢٢١/٧) وقال: «رواه أحمد، ورجاله ثقات».

(٢) السند (٢٤٠/٥ حلى) وابن ماجه (٣٩٥١). وقال البوصيري في زوائده: «إسناده صحيح، رجاله ثقات».

(٣) السند (١٢٥١٣، ١٢٦١٦). وإسناده صحيحان. ورواية النسائي له إنما هي في السنن الكبرى، كما نص عليه الحافظ ابن حجر في تعجيل المنفعة (ص ١٣٤). وذكره الهيثمي في الزوائد (٢٣٦/٢) وقال: «رواه أحمد، ورجاله ثقات». إلا أنه سقط فيه الفاظ من متن الحديث.

(٤) السند (١٠٨/٥، ١٠٩ حلى) والترمذي (٢١٠/٣). ورواه الطبري (١٣٣٧، ١٣٣٧١) بإسنادين فيهما انقطاع، ولكن تين وصلهما من روايات السند والترمذي وغيرهما.

النبي ﷺ : «إني لا أخاف على أمتي إلا الأئمة المضلين، فإذا وُضِعَ السيف في أمتي، لم يرفع عنهم إلى يوم القيامة». ليس في شيء من الكتب الستة، وإسناده جيد قوى (١). وروى ابن مردويه عن أبي مالك الأشجعي، عن نافع بن خالد الخزاعي، عن أبيه قال - وكان أبوه من أصحاب رسول الله ﷺ، وكان من أصحاب الشجرة -: كان رسول الله ﷺ إذا صلى والناس حوله، صلى صلاة خفيفة تامة الركوع والسجود. قال: فجلس يوماً فأطال الجلوس حتى أوماً بعضنا إلى بعض: أن اسكتوا، إنه ينزل عليه. فلما فرغ قال له بعض القوم: يا رسول الله، لقد أطلت الجلوس حتى أوماً بعضنا إلى بعض: إنه ينزل عليه؟ قال: «لا، ولكنها كانت صلاة رغبة ورهبة، سألت الله فيها ثلاثاً فأعطاني اثنتين، ومنعني واحدة. سألت الله ألا يعذبكم بعداب عذب به من كان قبلكم، فأعطانيها، وسألت الله ألا يسلط على أمتي عدواً يستبجحها، فأعطانيها. وسألته ألا يلبسكم شيئاً ولا يذيق بعضكم بأس بعض، فمنعنيها»، قال: قلت له: أبوك سمعها من رسول الله ﷺ؟ قال: نعم، سمعته يقول: إنه سمعها من رسول الله ﷺ عدد أصابعي هذه، عشر أصابع (٢). وروى ابن مردويه عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «سألت ربي لأمتي أربع خصال، فأعطاني ثلاثاً ومنعني واحدة. سألته ألا تكفر أمتي واحدة، فأعطانيها. وسألته ألا يعذبهم بما عذب به الأمم قبلهم، فأعطانيها. وسألته ألا يظهر عليهم عدواً من غيرهم، فأعطانيها. وسألته ألا يجعل بأسهم بينهم، فمنعنيها». ورواه ابن أبي حاتم (٣).

وقال مجاهد وسعيد بن جبير وغير واحد في قوله: ﴿عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ﴾ يعني: الرجم ﴿أَوْ مِّنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ يعني: الخسف. وهذا هو اختيار ابن جرير.

وهو كما قال ابن جرير، رحمه الله، ويشهد له بالصححة قوله تعالى: ﴿أَأْمِنْتُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ. أَمْ أَمِنْتُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرٍ﴾ [الملك: ١٦-١٨]، وفي الحديث: «ليكونن في هذه الأمة قَذْفٌ وَخَسْفٌ وَمَسْخٌ» (٤) وذلك مذكور مع نظائره في أسارات الساعة وأشراتها وظهور الآيات قبل يوم القيامة، وستأتي مواضعها إن شاء الله تعالى.

وقوله: ﴿أَوْ يَلْبَسَكُمْ شَيْعًا﴾ أي: يجعلكم ملتبسين شيئاً: فرقاً متخالفين. قال ابن عباس: يعني: الأهواء. وكذا قال مجاهد وغير واحد. وقد ورد في الحديث المروي من طرق عنه ﷺ أنه قال:

(١) المسند (١٧١٨٢). وذكره الهيثمي في الزوائد (٧ / ٢٢١)، وقال: «رواه أحمد والبخاري، ورجال أحمد رجال الصحيح». ورواه الطبري أيضاً (١٣٣٦٨، ١٣٣٦٩) وأشار إليه الحافظ في الفتح (٨ / ٢٢١) عن رواية الطبري، وقال: «بإسناد صحيح». وقوله: «زوى لى الأرض»: أي قبضها وجمعها حتى يراها جميعاً.

(٢) ورواه الطبري (١٣٣٦٧) - بنحوه - مختصراً قليلاً. وأشار إليه الحافظ في الإصابة (٢ / ١٠١) ونسبه للحسن بن سفيان وأبي يعلى والطبراني والطبري وغيرهم، وقال: «رجاله ثقات». وذكره الهيثمي في الزوائد (٧ / ٢٢٢، ٢٢٣)، وقال: «رواه الطبراني بأسانيد، ورجال بعضها رجال الصحيح غير نافع بن خالد، وقد ذكره ابن أبي حاتم، ولم يجرحه أحد. ورواه البزار». ونافع بن خالد: ترجمه البخاري في الكبير (٤ / ٢ / ٨٥)، ولم يذكر فيه جرحاً.

(٣) ذكره الهيثمي في الزوائد (٧ / ٢٢٢)، وقال: «رواه الطبراني في الأوسط، ورجاله ثقات». ورواه البزار، إلا أنه قال: سألت ربي ثلاثاً. ورواية البزار أشار إليها الحافظ ابن كثير هنا عقب هذا الحديث، من رواية أخرى لابن مردويه.

(٤) بهذا اللفظ رواه ابن أبي الدنيا في ذم الملاحى، عن أنس. وفي آخره: «ذلك إذا شربوا الخمر، واتخذوا القينات، وضربوا بالمعازف» - كما في الفتح الكبير (٣ / ٧١) - ورواه الترمذي (٣ / ٢١٥، ٢١٦) من حديث عائشة، مرفوعاً: «يكون في آخر هذه الأمة خسف ومسح وقذف، قالت: قلت: يا رسول الله، أنهلكم وفينا الصالحون؟ قال: نعم، إذا ظهر الخبث». قال الترمذي: حديث غريب.

« وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة ». وقوله: ﴿وَيُذِيقُ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾ قال ابن عباس وغير واحد: يعني يسلب بعضهم على بعض بالعذاب والقتل.
وقوله: ﴿انظُرْ كَيْفَ نَصَرَفُ الْآيَاتِ﴾ أى : نبينها ونوضحها ونفسرها ﴿لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ أى : يفهمون ويتدبرون عن الله آياته وحججه وبراهينه.

﴿وَكَذَّبَ بِهِنَّ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ لِكُلِّ نَبَأٍ مُسْتَقَرٍّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُبْسِتُكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَا يَتَّقُونَ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿﴾

يقول تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِهِ﴾ أى : بالقرآن الذى جنتهم به ، والهدى والبيان ﴿قَوْمُكَ﴾ يعنى : قريشاً ﴿وَهُوَ الْحَقُّ﴾ أى : الذى ليس وراءه حق ﴿قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ أى : لست عليكم بحفيظ ، ولست بموكل بكم ، كقوله : ﴿وَقُلْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩] أى : إنما على البلاغ ، وعليكم السمع والطاعة ، فمن اتبعنى سعد فى الدنيا والآخرة ، ومن خالفنى فقد شقى فى الدنيا والآخرة ؛ ولهذا قال : ﴿لِكُلِّ نَبَأٍ مُسْتَقَرٍّ﴾ قال ابن عباس وغير واحد: أى لكل نبأ حقيقة ، أى : لكل خبر وقوع ، ولو بعد حين ، كما قال : ﴿وَتَلْعَلْنِ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ [ص: ١٨٨] ، وقال : ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٍ﴾ [الرعد: ١٣٧] . وهذا تهديد ووعيد أكيد ؛ ولهذا قال بعده : ﴿وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ .

ثم قال : ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا﴾ أى : بالتكذيب والاستهزاء ﴿فَاعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ أى : حتى يأخذوا فى كلام آخر غير ما كانوا فيه من التكذيب ﴿وَإِمَّا يُبْسِتُكَ الشَّيْطَانُ﴾ والمراد بهذا كل فرد من آحاد الأمة ، ألا يجلس مع المكذبين الذين يحرفون آيات الله ويضعونها على غير موضعها ، فإن جلس أحد منهم ناسياً ، فلا يقعد بعد الذكر ﴿مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ . ولهذا ورد فى الحديث : « رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه »^(١) . وقال السدى ، عن أبى مالك وسعيد بن جبیر فى قوله : ﴿وَإِمَّا يُبْسِتُكَ الشَّيْطَانُ﴾ قال : إن نسيت فذكرت ، فلا تجلس معهم . وكذا قال مقاتل ابن حيان . وهذه الآية هى المشار إليها فى قوله : ﴿وَقَدْ نَزَلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يَكْفُرُ بِهَا وَيَسْتَهْزِئُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذَا مَثَلْتُمْ﴾ الآية [النساء: ١٤٠] أى : إنكم إذا جلستم معهم وأقرتموهم على ذلك ، فقد ساوتموهم فى الذى هم فيه .

وقوله : ﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ أى : إذا تجنبوهم فلم يجلسوا معهم فى ذلك ، فقد برئوا من عهدهم ، وتخلصوا من إثمهم . وقوله : ﴿وَلَكِنْ ذَكَرُوا﴾ أى : ولكن أمرناكم بالإعراض عنهم حينئذ تذكيراً لهم عما هم فيه ؛ ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ ذلك ولا يعودون إليه .

(١) هو بهذا اللفظ يدور على السنة الفقهاء وغيرهم . وقد ذكره السيوطى فى الجامع الصغير (٤٤٦٣) ، وأنه رواه الطبرانى عن نوبان ، ورمز له بالصحة . وأخطأ فى ذلك ، فإن فى إسناده رجلاً ضعيفاً ، كما بينه شارحه المناوى . وقد أطلال السخاوى فى تخريجه وبيان ضعفه فى المقاصد الحسنة ، رقم (٥٢٨) (ص ٢٢٨ - ٢٣٠) . ولكن معناه ثابت صحيح . فقد مضى عند تفسير الآيتين : (٢٨٥ ، ٢٨٦) من سورة البقرة حديث ابن عباس مرفوعاً : « إن الله وضع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » . وبيننا هناك صحته .

﴿ وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَعَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكَّرَ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ هَذَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيَّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعَدَّلَ كُلُّ عَدَلٍ لَّا يُؤْخَذُ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾

يقول تعالى : ﴿ وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَعَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ أى : دعهم وأعرض عنهم وأمهلهم قليلاً ، فإنهم صائرون إلى عذاب عظيم ، ولهذا قال : ﴿ وَذَكَّرَ بِهِ ﴾ أى : وذكر الناس بهذا القرآن ، وحذرهم نعمة الله وعذابه الاليم يوم القيامة . وقوله : ﴿ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ أى : لثلا تبسل . قال ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، والحسن : تبسل : تسلم . عن ابن عباس : تَفْضَحُ . وقال الكلبي : تُجْزَى . وكل هذه الأقوال والعبارات متقاربة فى المعنى ، وحاصلها : الإسلام لله لئلا تلهك ، والحسب عن الخير ، والارتهاق عن درك المطلوب ، كما قال : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ . إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴾ [المدثر : ٣٨ ، ٣٩] . وقوله : ﴿ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ ﴾ أى : لا قريب ولا أحد يشفع فيها ، كما قال : ﴿ مَنْ قِيلَ أَنْ يَأْتِي يَوْمَ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [البقرة : ٢٥٤] .

وقوله : ﴿ وَإِنْ تَعَدَّلَ كُلُّ عَدَلٍ لَّا يُؤْخَذُ مِنْهَا ﴾ أى : ولو بذلت كل مبدول ما قبل منها ، كما قال : ﴿ وَإِنْ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كَفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾ [آل عمران : ٩١] ، وهكذا قال هاهنا : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ .

﴿ قُلْ أَدْعُوهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانًا . اللَّهُ أَصْحَابُ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَىٰ أُنْتِنَا قُلْ إِنْ هَدَىٰ اللَّهُ فَهُوَ الْهُدَىٰ وَأَمْرًا لِلْإِسْلَامِ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ وَأَنْ أَقْسِمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُواهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٠٠﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلَهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١٠١﴾

قال السددي : قال المشركون للمسلمين : اتبعوا سبيلنا ، وتركوا دين محمد ، فأنزل الله ، عز وجل : ﴿ قُلْ أَدْعُوهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا ﴾ أى : فى الكفر ﴿ بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ ﴾ فيكون مثلنا مثل الذى ﴿ اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ ﴾ يقول : مثلكم ، إن كفرتم بعد الإيمان ، كمثل رجل كان مع قوم على الطريق ، فضلَّ الطريق ، فحيرته الشياطين ، واستهوته فى الأرض ، وأصحابه على الطريق ، فجعلوا يدعونه إليهم يقولون : اتنا فإنا على الطريق ، فأبى أن يأتيهم . فذلك مثل من يتبعهم بعد المعرفة بمحمد ﷺ . ومحمد الذى يدعو إلى الطريق ، والطريق هو الإسلام . رواه ابن جرير (١) . وقال ابن عباس : هذا مثل ضربه الله للآلئة ومن يدعو إليها ، والدعاة الذين يدعون إلى الله ، عز وجل ، كمثل رجل ضل عن الطريق تائها ضالاً ، إذ ناداه مناد : يا فلان بن فلان ، هلم إلى الطريق ، وله أصحاب يدعونه : يا فلان ،

هلم إلى الطريق ، فإن اتبع الداعي الأول، انطلق به حتى يلقيه إلى الهلكة. وإن أجاب من يدعوه إلى الهدى، اهتدى إلى الطريق. وهذه الداعية التي تدعو في البرية من الغيلان، يقول: مثل من يعبد هذه الآلهة من دون الله، فإنه يرى أنه في شيء حتى يأتيه الموت، فيستقبل الندامة والهلكة .

وقوله: ﴿كَأَلَدِّيَ اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ﴾ ، هم «الغيلان»، يدعونه باسمه واسم أبيه وجده، فيتبعها وهو يرى أنه في شيء، فيصبح وقد ألقته في هلكة، وربما أكلته - أو تلقيه في مضلة من الأرض، يهلك فيها عطشاً، فهذا مثل من أجاب الآلهة التي تُعبد من دون الله، عز وجل. رواه ابن جرير (١) .

وسياق الآية يقتضى أن هذا الذى استهوته الشياطين فى الأرض حيران - وهو منصوب على الحال، أى: فى حال حيرته وضلاله وجهله بوجه الحجّة - وله أصحاب على المحجة سائرون، فجعلوا يدعونه إليهم وإلى الذهاب معهم على الطريقة المثلى. وتقدير الكلام: فيأبى عليهم ولا يلتفت إليهم، ولو شاء الله لهداه، وكرّده به إلى الطريق؛ ولهذا قال: ﴿قُلْ إِنْ هَدَى اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ﴾ [الزمر: ٣٧]، وقال: ﴿إِنْ نَحْرَضْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ [النحل: ٣٧] .

وقوله: ﴿وَأْمُرْنَا نَسْلُمُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أى: نخلص له العبادة وحده لا شريك له. ﴿وَأَنْ أَقِمُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْهُ﴾ أى: وأمرنا بإقامة الصلاة وبتقواه فى جميع الأحوال ﴿وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أى: يوم القيامة .

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ أى: بالعدل، فهو خالقهما ومالكهما، والمدير لهما ولمن فيهما . وقوله: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ يعنى: يوم القيامة، الذى يقول الله: ﴿كُنْ﴾ فيكون عن أمره كلمح البصر، أو هو أقرب. و ﴿يَوْمَ﴾ منصوب إما على العطف على قوله: ﴿وَأَتَقَوْهُ﴾، وتقديره: واتقوا يوم يقول: كن فيكون، وإما على قوله: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ أى: وخلق يوم يقول: كن فيكون. فذكر بدء الخلق وإعادته، وهذا مناسب. وإما على إضمار فعل، تقديره: واذكر يوم يقول: كن فيكون. ﴿قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ﴾ جملتان محللتهما الجر، على أنهما صفتان لرب العالمين. وقوله: ﴿يَوْمَ﴾ يتفخ في الصور، يحتمل أن يكون بدلاً من قوله: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ﴿يَوْمَ يَنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ ويحتمل أن يكون ظرفاً لقوله: ﴿وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يَنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ كتقوله: ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦] ، وكقوله: ﴿الْمَلِكُ يُؤَمِّدُ الْحَقَّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٦] ، وما أشبه ذلك .

واختلف المفسرون فى قوله: ﴿يَوْمَ يَنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ ، فقال بعضهم : المراد بالصور هاهنا جمع «صورة» أى: يوم ينفخ فيها فتحيا. قال ابن جرير: كما يقال : سور - لسور البلد - هو جمع سورة . والصحيح أن المراد بالصور: «القرن» الذى ينفخ فيه إسرافيل، عليه السلام، قال ابن جرير: والصواب من القول فى ذلك عندنا ما تظاهرت به الأخبار عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن إسرافيل قد التقم الصور وحنى جبهته، ينتظر متى يؤمر ، فينفخ» . ورواه مسلم فى صحيحه (٢) . وروى الإمام أحمد عن

(١) الطبرى (١٣٤٢٣) .

(٢) وهم الخافظ ابن كثير هنا وهما شديد! فالحديث ليس فى صحيح مسلم، على اليقين. ثم ليس فى شيء من رواياته التى رأيتها تسميه «إسرافيل». بل فيها: «صاحب القرن». والحديث رواه أحمد فى المستد (١١٠٥٤) عن أبى سعيد الخدرى، عن النبى ﷺ، قال: « كيف أنتم وقد التقم صاحب القرن القرن، وحنى جبهته، وأصغى سمعه، ينظر متى يؤمر؟» =

عبد الله بن عمرو قال : قال أعرابي : يا رسول الله ، ما الصور؟ قال : « قَرْنٌ يَنْفُخُ فِيهِ » (١) . وقد روينا حديث الصور بطوله ، من طريق الحافظ أبي القاسم الطبراني ، وهو غريب جدا ! ولبعضه شواهد في الأحاديث المتفرقة ، وفي بعض ألفاظه نكارة . تفرد به إسماعيل بن رافع قاصراً أهل المدينة ، وقد اختلف فيه ، فمنهم من وثقه ، ومنهم من ضعفه ، ونص على نكارة حديثه غير واحد من الأئمة ، كأحمد بن حنبل ، وأبي حاتم الرازي ، وعمرو بن علي الفلاس ، ومنهم من قال فيه : هو متروك . وقال ابن عدي : أحاديث كلها فيها نظر إلا أنه يكتب حديثه في جملة الضعفاء .

قلت : وقد اختلف عليه في إسناد هذا الحديث على وجوه كثيرة ، قد أفردتها في جزء على حدة . وأما سياقه ، فغريب جداً ! ويقال : إنه جمعه من أحاديث كثيرة ، وجعله سياقاً واحداً !! فأنكر عليه بسبب ذلك . وسمعت شيخنا الحافظ أبا الحجاج المزني يقول : إنه رأى للوليد بن مسلم مصنفاً قد جمعه كالشواهد لبعض مفردات هذا الحديث ، فالله أعلم (٢)

ربيع

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ إِذْ رَأَى أَن تَضْحَكَ أَصْنَامًا ءِإِلَهَةً إِنِّي آنَسْتُ وَقَوْمَكَ فِي صُنْدُقٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٦﴾ وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمٰوٰتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿١٦٧﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَأَلْحِقُ الأَفْلٰكِينَ ﴿١٦٨﴾ فَلَمَّا رءَا النَّمَرَ بَارِئًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الضَّالِّينَ ﴿١٦٩﴾ فَلَمَّا رءَا الشَّمْسَ بَارِئَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَنفُومِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٧٠﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلذِّي فَطَرَ السَّمٰوٰتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٧١﴾ ﴾

قال الضحاك ، عن ابن عباس : إن أبا إبراهيم لم يكن اسمه آزر ، وإنما كان اسمه تارح . رواه ابن أبي حاتم . وهكذا قال غير واحد من علماء النسب : إن اسمه تارح . وقال مجاهد والسدي : آزر : اسم صنم . قلت : كأنه غلب عليه آزر لخدمته ذلك الصنم ، فالله أعلم . وقال ابن جرير : وقال آخرون : هو سب وعيب بكلامهم ، ومعناه : مُعَوَّج . ولم يسنده ولا حكاه عن أحد . ثم قال ابن جرير : والصواب أن اسم أبيه آزر . ثم أورد على نفسه قول النسائي أن اسمه تارح ، ثم أجاب بأنه قد يكون له

قال المسلمون : يا رسول الله ، فما تقول ؟ قال : « قولوا : حسبنا الله ونعم الوكيل ، على الله توكلنا » . وإسناده ضعيف . ورواه الحاكم في المستدرک (٤ / ٥٥٩) بإسنادين ضعيفين . وذكره النابلسي في ذخائر الموارث (٧٩٦٠) ، ونسبه لأبي داود والترمذي وابن ماجه . وذكره السيوطي في زيادات الجامع الصغير (٢ / ٣٣٥ ، ٣٣٦) من الفتح الكبير ، ونسبه لاحمد والترمذي وابن حبان والحاكم . ورواه أحمد أيضا (٣٠١٠) من حديث ابن عباس . وكذلك رواه الحاكم (٤ / ٥٥٩) . وإسناده - عندهما - ضعيف .

(١) المسند (٦٥٠٧ ، ٦٨٠٥) . ورواه الترمذي (٣ / ٢٩٥) وصححه . ورواه الحاكم (٢ / ٤٣٦ ، ٥٠٦ ، ٥٦٠ / ٤) وصححه ووافقه الذهبي .

(٢) هو حديث ظاهر النكارة ، ساقه ابن كثير هنا من رواية الطبراني ، كما قال فحذفناه ، كما شرطنا في كتابنا هذا . و« إسماعيل بن رافع » - زاوية : قال فيه ابن معين : « ليس بشيء » . وقال أبو حاتم : « هو منكر الحديث » . انظر الجرح والتعديل لابن أبي حاتم (١ / ١ - ١٦٨ - ١٦٩) . وقال ابن حبان في كتاب المجروحين (ص ٨٣ ، ٨٤ مخطوط مصور) : « كان رجلاً صالحاً ، إلا أنه يقلب الأخبار ، حتى صار الغالب على حديثه المنكير ، التي يسبق إلى القلب أنه كالتعمد لها » .

اسمان، كما لكثير من الناس، أو يكون أحدهما لقباً. وهذا الذى قاله جيد قوى، والله أعلم^(١).

واختلف القراء فى أداء قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزرُ﴾ ، فحكى ابن جرير عن الحسن البصرى وأبى يزيد المدنى أنهما كانا يقرآن: « وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتخذ أصناماً آلهة »، معناه: يا آزر، أتخذ أصناماً آلهة. وقرأ الجمهور بالفتح، إما على أنه علم أعجمى لا ينصرف، وهو بدل من قوله: ﴿لأبيه﴾، أو عطف بيان، وهو أشبه. وعلى قول من جعله نعتاً لا ينصرف أيضاً كأحمر وأسود. فأما من زعم أنه منصوب لكونه معمولاً لقوله: ﴿أَتَّخِذُ أَصْنَامًا﴾ ، تقديره: يا أبت، أتخذ آزر أصناماً آلهة! فإنه قول بعيد فى اللغة؛ فإن ما بعد حرف الاستفهام لا يعمل فيما قبله؛ لأن له صدر الكلام، كذا قرره ابن جرير وغيره. وهو مشهور فى قواعد العربية.

والمقصود: أن إبراهيم، عليه السلام، وعظ أباه فى عبادة الأصنام، وزجره عنها، ونهاه فلم ينته، كما قال: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزرُ أَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً﴾ أى: أتتله لصنم تعبده من دون الله؟ ﴿إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ﴾ أى: السالكين مسلكك ﴿فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أى: تائهين لا تهتدون أين تسلكون، بل فى حيرة وجهل وأمرمك فى الجهالة والضلال بين واضح لكل ذى عقل صحيح.

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ ذُكِرَ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا. إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا. يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا. يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا. يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا. قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنِ الْهَيْبَةِ يَا إِبْرَاهِيمَ لئن لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجِمَنَّكَ وَاجْعَلَنَّكَ مِنَ الْوَجْدِيِّينَ. قَالَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا. وَأَعْتَزَلْتُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ [مریم: ٤١ - ٤٨]، فكان إبراهيم، عليه السلام، يستغفر لأبيه مدة حياته، فلما مات على الشرك وتبين إبراهيم ذلك، رجع عن الاستغفار له، وتبرأ منه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَّهَا بِأَهْ أَوْ يَأْتِيهِ أَهْوَاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ التوبة: ١١٤. وثبت فى الصحيح: أن إبراهيم يلقى أباه آزر يوم القيامة فيقول له آزر: يا بنى، اليوم لا أعصيك، فيقول إبراهيم: أى رب، ألم تعدنى أنك لا تخزىنى يوم الدين، وأى خزى أخزى من أبى الأبعد؟ فيقال: يا إبراهيم، انظر ما وراءك. فإذا هو بذيخ ملتطخ فيؤخذ بقوائمه، فيلقى فى النار^(٢).

وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أى: نبين له وجه الدلالة - فى نظره إلى

(١) أما أن اسم والد إبراهيم «آزر» - فإنه عندنا أمر قطعى الثبوت، بصريح القرآن فى هذه الآية، بدلالة الألفاظ على المعانى. وأما التأويل والتلاعب بالألفاظ، فما هو إلا إنكار مقنع لمضمون الكلام ومعناه. وسواء أكان اسمه فى قول أهل السب نقلاً عن الكتب السابقة - «تارح»، أو لم يكن، فلا أثر له فى وجوب الإيمان بصدق ما نص عليه القرآن، وبدلالة لفظ «لأبيه» على معناه الوضعى فى اللغة. والقرآن هو المهيم على ما قبله من كتب الأديان السابقة.

ثم يقطع كل شك، ويذهب بكل تأويل - الحديث الصحيح الذى رواه البخارى (١٣٩/٤) من الطبعة السلطانية، ٦/ ٢٧٦ من فتح البارى: «عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ، قال: يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة، وعلى وجه آزر فترة وغيره، فيقول له إبراهيم: ألم أقل لك: لا تعصنى؟» - إلى آخر الحديث. وليس بعد هذا النص مجال للتلاعب.

وقد فصلت تحقّق هذه المسألة فى بحث مسهب، ألحقته بكتاب المغرب للجوالقى - بتحقيقى - طبعة دار الكتب المصرية سنة ١٣٦١، (ص ٣٥٩ - ٣٦٥).

(٢) هو الحديث الذى أشرنا فى الهامشة السابقة إلى أنه رواه البخارى من حديث أبى هريرة، والمؤلف اختصره هنا، كانه يحكيه بالمعنى.

خلقهما - على وحدانية الله، عز وجل، في ملكه وخلقه، وأنه لا إله غيره ولا رب سواه، كما قال تعالى : ﴿ قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [يونس : ١٠١] ، وقال : ﴿ أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [الاعراف : ١٨٥] ، وقال : ﴿ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ نَسْفَ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نَسْفَ عَلَيْهِمْ كَسْفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴾ [سأ : ٩] . ويحتمل أن يكون هذا كشف له عن بصره، حتى رأى ذلك عبثاً، ويحتمل أن يكون عن بصيرته حتى شاهده بقواده وتحققه وعرفه. وعلم ما في ذلك من الحكم الباهرة والدلالات القاطعة، كما رواه الإمام أحمد والترمذي وصححه، عن معاذ بن جبل في حديث المنام: «أتاني ربي في أحسن صورة فقال: يا محمد، فيم يختصم الملا الأعلى؟ فقلت: لا أدري يا رب، فوضع كفه بين كفتي، حتى وجدت برد أنامله بين يدي، فتجلى لي كل شيء وعرفت» وذكر الحديث.

وقوله : ﴿وَلْيَكُونَنَّ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ قيل: «الواو» زائدة، تقديره: وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض ليكون من الموقنين، كقوله: ﴿وَكذلك نَقْصِلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلَ الْمُحْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٥] . وقيل: بل هي على بابها، أي: نريه ذلك ليكون عالماً وموقناً.

وقوله : ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ﴾ أي: تغشاه وستره ﴿رَأَى كَوْكَبًا﴾ أي: نجماً ﴿قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ﴾ أي: غاب. قال ابن إسحاق : «الأفول» : الذهاب. وقال ابن جرير: يقال: أفل النجم يأفل ويأفل أفولاً وأفلاً: إذا غاب ويقال: أين أفلت عنا؟ بمعنى: أين غبت عنا . ﴿قَالَ لَا أَحِبُّ الْأَفْلِينَ﴾ قال قتادة : علم أن ربه دائم لا يزول ﴿فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا﴾ أي: طالماً ﴿قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ. فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي﴾ أي: هذا الشيء الطالع ربي ﴿هَذَا أَكْبَرُ﴾ أي: حرماً من النجم ومن التمر، وأكثر إضاءة ﴿فَلَمَّا أَفَلَتْ﴾ أي: غابت ﴿قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ . إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ﴾ أي: أخلصت ديني وأفردت عبادتي ﴿لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ أي: خلقتهما وابتدعهما على غير مثال سبق ﴿حَنِيفًا﴾ أي: في حال كوني حنيفاً، أي: مانثلاً عن الشرك إلى التوحيد؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ .

وقد اختلف المفسرون في هذا المقام، هل هو مقام نظر أو مناظرة؟ فروى ابن جرير عن ابن عباس ما يقتضى أنه مقام نظر، واختاره ابن جرير مستدلاً بقوله: ﴿لَنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ . والحق : أن إبراهيم ، عليه الصلاة والسلام ، كان في هذا المقام مناظراً لقومه ، مبيناً لهم بطلان ما كانوا عليه من عبادة الهياكل والأصنام، فبين في المقام الأول مع أبيه خطأهم في عبادة الأصنام الأرضية، التي هي على صورة الملائكة السماوية، ليشفعوا لهم إلى الخالق العظيم الذي هم عند أنفسهم أحقر من أن يعبدوه، وإنما يتوسلون إليه بعبادة ملائكته ، ليشفعوا لهم عنده في الرزق والنصر ، وغير ذلك مما يحتاجون إليه . وبين في هذا المقام خطأهم وضلالهم في عبادة الهياكل، وهي الكواكب السيارة السبعة المتحيرة، وهي: القمر، وعطارد، والزهرة، والشمس، والمريخ، والمشتري، وزحل، وأشدهن إضاءة وأشرفهن عندهم : الشمس ، ثم القمر، ثم الزهرة . فبين أولاً : أن هذه الزهرة لا تصلح للإلهية ؛ لأنها مسخرة مقدرة بسير معين ، لا تزيع عنه مبيناً ولا شمالاً ، ولا تملك لنفسها تصرفاً ، بل هي جرم من الأجرام خلقها الله منيرة، لما له في ذلك من الحكمة العظيمة، وهي تطلع من المشرق، ثم تسير فيما

(١) في المطبوع من عمدة التفسير : وكذا المخطوطة الأزهرية : « أفلم » وهو خطأ واضح . (البار) .

بينه وبين المغرب حتى تغيب عن الأبصار فيه، ثم تبدو في الليلة القابلة على هذا النوال. ومثل هذه لا تصلح للإلهية. ثم انتقل إلى القمر، فبين فيه مثل ما بين في النجم. ثم انتقل إلى الشمس كذلك. فلما انتفت الإلهية عن هذه الأجرام الثلاثة التي هي أنور ما تقع عليه الأبصار، وتحقق ذلك بالدليل القاطع - ﴿قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ أي: أنا بريء من عبادتهم ومولاتهم، فإن كانت آلهة، فكيدوني بها جميعاً ثم لا تنظرون ﴿إِنِّي وَجْهَتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي: إنما أعبد خالق الأشياء ومخترعها ومُسخرها ومقدرها ومدبرها، الذي بيده ملكوت كل شيء، وخالق كل شيء وربّه ومليكه وإلهه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حِينًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]. وكيف يجوز أن يكون إبراهيم الخليل ناظراً في هذا المقام؟ وهو الذي قال الله في حقه: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ . إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ الآيات [الأنبياء: ٥١، ٥٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . شَاكِرًا لِأَنْعَمِهِ اجْتِنَاءً وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ . ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠-١٢٣]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١].

وقد ثبت في الصحيحين، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «كل مولود يولد على الفطرة»، وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار؛ أن رسول الله ﷺ قال: «قال الله: إني خلقت عبادي حنفاء»^(١)، وقال الله في كتابه العزيز: ﴿فَطَرَتُ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢] ومعناه على أحد القولين: كقوله: ﴿فَطَرَتُ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ كما سيأتي بيانه. فإذا كان هذا في حق سائر الخليفة، فكيف يكون إبراهيم الخليل - الذي جعله الله ﴿أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠] - ناظراً في هذا المقام؟! بل هو أولى الناس بالفطرة السليمة، والسجدة المستقيمة بعد رسول الله ﷺ بلا شك ولا ريب. ومما يؤيد أنه كان في هذا المقام مناظراً لقومه فيما كانوا فيه من الشرك لا ناظراً - قوله تعالى:

﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِي وَإِلَّا أَن يُشَاءَ رَبِّي سَلَّطْتُ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَإِنَّمَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ وَلَا يُخَفُّونَ بِشَيْءٍ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُرْسَلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَلْفِئَةُ يَوْمِ الْحِسَابِ الَّذِينَ آمَنُوا أُولَئِكَ يَلْبَسُونَ أَيْمَانَهُمْ يُطْمِئِنُّونَ أُولَئِكَ هُمُ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿١٦١﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ لَرَفَعَ دَرَجَاتٍ مِّنْ دُونِهَا إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٦٢﴾﴾

يقول تعالى: وجادله قومه فيما ذهب إليه من التوحيد، وناظره بشبه من القول - ﴿قَالَ أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِي﴾ أي: أتجادلونني في أمر الله وأنه لا إله إلا هو؟ وقد بصّرني وهداني إلى الحق وأنا

(١) مضى الحديث بطوله عند تفسير الآية (١٩) من سورة المائدة .

على بيته منه ، فكيف ألتفت إلى أقوالكم الفاسدة وشبهكم الباطلة؟! وقوله: ﴿وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا﴾ أى: ومن الدليل على بطلان قولكم فيما ذهبتم إليه أن هذه الآلهة التى تعبدونها لا تؤثر شيئاً، وأنا لا أخافها، ولا أباليها، فإن كان لها صنع، فكيدونى بها ولا تتظرون، بل عاجلونى بذلك. وقوله: ﴿إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا﴾ استثناء منقطع ، أى: لا يضر ولا ينفع إلا الله، عز وجل . ﴿وَرِسعِ رَبِّي كُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ أى: أحاط علمه بجميع الأشياء، فلا يخفى عليه خافية. ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أى: فيما بينته لكم ، فتعتبرون أن هذه الآلهة باطلة، فتتجزروا عن عبادتها . وهذه الحججة نظير ما احتج به نبي الله هود، عليه السلام، على قومه عاد، فيما قص عنهم فى كتابه، حيث يقول: ﴿قَالُوا يَا هُوْدُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِبَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ . إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ . مِنْ دُونِهِ فَكَيْدُونِي جَمِيعًا لِمَ لَا تَنْظُرُونَ . إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنْ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٣-٥٦] .

وقوله: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ﴾ أى: كيف أخاف من هذه الأصنام التى تعبدونها من دون الله ﴿وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يَنْزَلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا﴾ قال ابن عباس وغير واحد من السلف: أى: حجة . وهذا كما قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١]، وقال: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ [النجم: ٢٣] . وقوله: ﴿فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أى: فأى الطائفتين أصوب؟ الذى عبد من بيده الضر والنفع، أو الذى عبد من لا يضر ولا ينفع بلا دليل؟ أيهما أحق بالأمن من عذاب الله يوم القيامة؟ قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ أى: هؤلاء الذين أخلصوا العبادة لله وحده لا شريك له، ولم يشركوا به شيئاً، هم الآمنون يوم القيامة، المهتدون فى الدنيا والآخرة.

روى البخارى عن عبد الله قال: لما نزلت ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ قال أصحابه: وأينا لم يظلم نفسه؟ فنزلت: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] (١) .

وروى الإمام أحمد عن عبد الله قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ شق ذلك على الناس ، فقالوا: يا رسول الله، أين لا يظلم نفسه؟ قال: «إنه ليس الذى تعنون ، ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح: ﴿يَا بَنِيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ ، إنما هو الشرك» (٢) .

وقوله: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ﴾ أى: وجهنا حجته على قومه . قال مجاهد وغيره: يعنى بذلك قوله: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يَنْزَلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ وقد صدقه الله، وحكم له بالأمن والهداية فقال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾، ثم قال بعد ذلك كله: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ﴾ . قرئ بالإضافة وبلا إضافة، كما فى سورة يوسف، وكلاهما قريب فى المعنى .

وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ أى: حكيم فى أفعاله وأقواله ﴿عَلِيمٌ﴾ أى: بمن يهديه ومن يضلّه، وإن قامت عليه الحجج والبراهين، كما قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ . وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ .

(١) البخارى (٨ / ٢٢١ فتح) .

(٢) المسند (٣٥٨٩) ، وفصلنا تخريجه هناك . ورواه الطبرى بنحوه (١٣٤٧٦ - ١٣٤٨٠) .

﴿ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَرَكَرَبًا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُوشَعَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنَ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَأَجْنَاسَتِهِمْ وَهَدَيْنَهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِطَّ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَ وَالنَّبُوءَةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَوَالَاءَ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدْطِهِمْ آفَكَةٌ قُلْ لَا آسَأُكُمْ عَلَيْهِمْ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٠﴾

يخبر تعالى أنه وهب لإبراهيم إسحاق، بعد أن طعن في السن، وأيس هو وامراته «سارة» من الولد، فجاءته الملائكة وهم ذاهبون إلى قوم لوط، فبشروهما بإسحاق، فتعجبت المرأة من ذلك، وقالت: ﴿ يَا وَيْلَتَى أَأُلدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ . قَالُوا أَنْعَمِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمَتْ اللَّهُمَّ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مُجِيدٌ ﴾ [هود: ٧٢، ٧٣]. وبشروهما مع وجوده بنبوته، وبأن له نسلاً وعقباً، كما قال: ﴿ وَبَشَرْنَا نِسَاءَ الصَّالِحِينَ ﴾ [الصافات: ١١٢]، وهذا أكمل في الإشارة، وأعظم في النعمة، وقال: ﴿ فَبَشَرْنَا بِإِسْحَاقَ وَمِنَ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾ [هود: ٧١] ، أى: ويولد لهذا المولود ولد في حياتكما، فقرر أعينكما به كما قرت بوالده، فإن الفرح بولد الولد شديد لبقاء النسل والعقب ولما كان ولد الشيخ والشيخة قد يتوهم أنه لا يعقب لضعفه، وقعت الإشارة به ويولده باسم «يعقوب»، الذى فيه اشتقاق العقب والذرية، وكان هذا مجازاة لإبراهيم، عليه السلام، حين اعتزل قومه وتركهم، ونزح عنهم وهاجر من بلادهم ذاهباً إلى عبادة الله فى الأرض، فعوضه الله، عز وجل، عن قومه وعشيرته بأولاد صالحين من صلبه على دينه، لتقر بهم عينه، كما قال: ﴿ فَلَمَّا اعْتَزَلْتَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴾ [مريم: ٤٩] ، وقال هاهنا: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا ﴾ .

وقوله: ﴿ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ ﴾ أى: من قبله، هديناه كما هديناه، وهبنا له ذرية صالحة، وكل منهما له خصوصية عظيمة، أما نوح، عليه السلام، فإن الله تعالى لما أغرق أهل الأرض إلا من آمن به - وهم الذين صحبوه فى السفينة - جعل الله ذريته هم الباقين، فالناس كلهم من ذرية نوح، وكذلك الخليل إبراهيم، عليه السلام، لم يبعث الله، عز وجل، بعده نبياً إلا من ذريته، كما قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النَّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ﴾ الآية [العنكبوت: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النَّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ﴾ [الحديد: ٢٦] ، وقال تعالى: ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴾ [مريم: ٥٨] .

وقوله فى هذه الآية الكريمة: ﴿ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ ﴾ أى: وهدينا من ذريته ﴿ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ ﴾ الآية، وعود الضمير إلى «نوح»؛ لأنه أقرب المذكورين - ظاهر - وهو اختيار ابن جرير. وعوده إلى «إبراهيم»؛ لأنه الذى سبق الكلام من أجله - حسن ، لكن يشكل على ذلك «لوط»، فإنه ليس من ذرية «إبراهيم»، بل هو ابن أخيه هاران بن أزر؛ اللهم إلا أن يقال: إنه دخل فى الذرية تغليبا، كما فى قوله تعالى: ﴿ أُمُّ كَتُمُ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ

إِلَيْهَا وَاحِدًا وَتَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ [البقرة: ١٣٣]، فإسماعيل عمه، ودخل في آياته تغليبا. وكما في قوله: ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ. إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ [الحجر: ٣٠، ٣١] فدخل إبليس في أمر الملائكة بالسجود، وذم على المخالفة؛ لأنه كان قد تشبه بهم، فعومل معاملتهم، ودخل معهم تغليبا، وإلا فهو كان من الجن وطبيعت النار، والملائكة من نور.

وفي ذكر «عيسى»، عليه السلام، في ذرية «إبراهيم» أو «نوح» - على القول الآخر - دلالة على دخول ولد البنات في ذرية الرجال؛ لأن «عيسى»، عليه السلام، إنما ينسب إلى «إبراهيم»، عليه السلام، بأمه «مريم» عليها السلام، فإنه لا أب له. روى ابن أبي حاتم عن أبي حرب بن أبي الأسود قال: أرسل الحجاج إلى يحيى بن يعمر فقال: بلغني أنك تزعم أن الحسن والحسين من ذرية النبي ﷺ، تجده في كتاب الله؟ وقد قرأته من أوله إلى آخره فلم أجده! قال: أليس تقرا سورة الأنعام: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ﴾، حتى بلغ ﴿وَيَحْيَى وَعِيسَى﴾؟ قال: بلى، قال: أليس عيسى من ذرية إبراهيم، وليس له أب؟ قال: صدقت. فلهذا إذا أوصى الرجل لذريته، أو وقف على ذريته أو وهبهم، دخل أولاد البنات فيهم. فأما إذا أعطى الرجل بنيه أو وقف عليهم، فإنه يختص بذلك بنوه لصلبه وبنو بنيه، واحتجوا بقول الشاعر العربي:

بَنُوْنَا بَنُو أَبَائِنَا ، وَبَنَاتِنَا
بَنُوهُنَّ أَبْنَاءُ الرِّجَالِ الأَجْنَابِ

وقال آخرون: ويدخل بنو البنات فيهم أيضا، لما ثبت في صحيح البخاري، أن رسول الله ﷺ قال للحسن بن علي: «إن ابني هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين» (١). فسماه ابنا، فدل على دخوله في الأبناء. وقال الآخرون: هذا تجوز.

وقوله: ﴿وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ﴾: ذكر أصولهم وفروعهم. وذوى طبقتهم، وأن الهداية والاجتباء شملهم كلهم؛ ولهذا قال: ﴿وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾. ثم قال: ﴿ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾. أي: إنما حصل لهم ذلك بتوفيق الله وهدايته إياهم، ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾: تشديد لأمر الشرك، وتغليظ لشأنه، وتعظيم لملاسته، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَى إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَنْ أَشْرَكَتَ لِيَحْبُطَ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥] وهذا شرط، والشرط لا يقتضى جواز الوقوع، كقوله: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ [الزخرف: ٨١]، وكقوله: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لِهَوَا لَاتَّخِذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٧] وكقوله: ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ حَبِّ الْوَأْدِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [الزمر: ٤].

وقوله: ﴿أَوَلَيْكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنَّبِيَّةَ﴾. أي: أنعمنا عليهم بذلك رحمة للعباد بهم، ولطفاً منا بالخلقة ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا﴾ أي: بالنبوة. ويحتمل أن يكون الضمير عائداً على هذه الأشياء الثلاثة: الكتاب، والحكم، والنبوة. وقوله: ﴿هَؤُلَاءِ﴾ يعني: أهل مكة. قاله ابن عباس، وسعيد بن المسيب، وقتادة، والسددي ﴿فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾. أي: إن يكفر بهذه النعم من كفر بها من قريش وغيرهم من سائر أهل الأرض، من عرب وعجم، ومليين وكتابين، فقد وكلنا بها قوماً ﴿آخِرِينَ﴾. يعني: المهاجرين والأنصار وأتباعهم إلى يوم القيامة ﴿لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾. أي: لا يجحدون منها شيئا، ولا يردون منها حرفاً واحداً، بل يؤنون بجميعها محكمها ومتشابهها، جعلنا الله منهم بمنه وكرمه وإحسانه.

ثم قال تعالى مخاطباً عبده ورسوله محمداً ﷺ: ﴿أَوَلَيْكَ﴾ يعني: الأنبياء المذكورين مع من أضيف إليهم من الآباء والذرية والإخوان وهم الأشباه ﴿الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ أى: هم أهل الهداية لا غيرهم، ﴿فِيهِدَاهُمْ أَقْنَدَهُ﴾ أى: اقتد واتبع. وإذا كان هذا أمراً للرسول ﷺ، فأتمته تبع له فيما بشره وبأمرهم به. وقوله: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ أى: لا أطلب منكم على إبلاغى إياكم هذا القرآن أجره، ولا أريد منكم شيئاً ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ أى: يتذكرون به ، فِيرْشِدُوا من العمى إلى الهدى، ومن الغى إلى الرشاد، ومن الكفر إلى الإيمان.

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْنَا مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ لِيَجْزِيَوهُمْ قِرَاطِينَ بِئِدْوَانٍ مَشْكُورٍ كَثِيرًا وَعَلَّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا نَسُوا لَآءِ آبَائِهِمْ قُلْ إِنَّ اللَّهَ شَرُّ ذَرِّهِمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مَتَّصِقًا الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَاسْتَنْزَارٌ أَمْ الْقُرْآنُ وَمَنْ حَوْطًا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ، وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾﴾

يقول تعالى: وما عظموا الله حق تعظيمه؛ إذ كذبوا رسله إليهم، قال ابن عباس، ومجاهد: نزلت فى قريش. واختاره ابن جرير، وقيل: نزلت فى طائفة من اليهود؛ وقيل: فى فئحة من رجل منهم، وقيل: فى مالك بن الصيف ، ﴿قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْنَا مِنْ شَيْءٍ﴾ والأول أصح ؛ لان الآية مكية، واليهود لا ينكرون إنزال الكتب من السماء، وقريش - والعرب قاطبة - كانوا يبعدون إرسال رسول من البشر، كما قال : ﴿كَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ﴾ [يونس: ١٢] ، وقال تعالى: ﴿وَمَا نَمُنَعُ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا. قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْنُونُ مَطْمَئِنِينَ لَنَزَلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤ ، ٩٥]، وقال ههنا: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْنَا مِنْ شَيْءٍ﴾ ، قال الله تعالى: ﴿قُلْ﴾ أى: قل يا محمد لهؤلاء المنكرين لإنزال شىء من الكتب من عند الله، فى جواب سلبهم العام، بإثبات قضية جزئية موجبة: ﴿مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى﴾ يعنى: التوراة التى قد علمتم - وكل أحد - أن الله قد أنزلها على موسى بن عمران ﴿نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ﴾ أى: ليستضاء بها فى كشف المشكلات، ويهتدى بها من ظلم الشبهات.

وقوله: ﴿يَجْعَلُونَهُ﴾ (١) قِرَاطِينَ بِئِدْوَانٍ مَشْكُورٍ كَثِيرًا أى: يجعلون جعلتها قِرَاطِينَ، أى: قطعاً قطعاً، يكتبونها من الكتاب الأصلي الذى بأيديهم ويحرفون منها ما يحرفون ، ويبدلون ويأولون، ويقولون: ﴿هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٩] أى: فى كتابه المنزل، وما هو من عند الله ؛ ولهذا قال: ﴿يَجْعَلُونَهُ قِرَاطِينَ

(١) من أول قوله: «وقوله يجعلونه» - إلى هنا - أثبتنا الأفعال: «يجعلونه» و«يبدونها» و«يخفون» ، والأفعال فى كلام الخافظ ابن كثير فى تفسير الآية - بياء الغائب فى المضارعة ، دون تاء المخاطب ، لان هذا هو الثابت فى المخطوطتين . وهى قراءة ابن كثير - القارئ - وأبى عمرو «بالغيب فى الثلاثة» ، على إسناده للكفار . ووافقه ابن محيصن واليزيدى . وقرأ باقى الأربعة عشر «تجعلونه» - إلخ بياء المخاطب ، وهى قراءة حفص الثابتة فى مصاحفنا . وكذلك قول ابن كثير «من الكتاب الأصلي الذى بأيديهم» - هو الثابت فى المخطوطتين . وثبت فى المطبوعة: «بأيديكم» . وهو المناسب لقراءة تاء الخطاب . وإنما رجحنا إثبات ما فى المخطوطتين ؛ لانه هو الذى يستقيم وما ذهب إليه الخافظ ابن كثير - تبعاً للطبرى - أن الآية نزلت فى قريش، فيكون الخبر عن اليهود بياء الغائب . وقد رجح الطبرى القراءة بياء الغائب، وحكى =

يُدُونَهَا وَيُخْفُونَ كَثِيرًا . وقوله تعالى : ﴿ وَعَلَّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ ﴾ أى : ومن أنزل القرآن الذى علمكم الله فيه من خير ما سبق، ونياً ما يأتى ما لم تكونوا تعلمون ذلك، لا أنتم ولا آباؤكم . وقد قال قتادة : هؤلاء مشركو العرب . وقال مجاهد : هذه للمسلمين .

وقوله : ﴿ قُلِ اللَّهُ ﴾ : قال ابن عباس : أى : قل : الله أنزله . وهذا الذى قاله ابن عباس هو المتعين فى تفسير هذه الكلمة ، لا ما يقوله بعض المتأخرين ، من أن معنى ﴿ قُلِ اللَّهُ ﴾ أى : لا يكون خطابك هم إلا هذه الكلمة ، كلمة : « الله » . وهذا الذى قاله هذا القائل يكون أمراً بكلمة مفردة من غير تركيب ، والآيتان بكلمة مفردة لا يفيد فى لغة العرب فائدة يحسن السكوت عليها (١) . وقوله : ﴿ ثُمَّ ذَرَهُمْ فِي خُوضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ أى : ثم دعهم فى جهلهم وضلالهم يلعبون ، حتى يأتبهم من الله اليقين فسوف يعلمون : ألهم العاقبة ، أم لعباد الله المتقين ؟ .

وقوله : ﴿ وَهَذَا كِتَابٌ ﴾ يعنى : القرآن ﴿ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقٌ لِّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى ﴾ يعنى : مكة ﴿ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ من أحياء العرب ، ومن سائر طوائف بنى آدم من عرب وعجم ، كما قال فى الآية الأخرى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف : ١٥٨] ، وقال : ﴿ لَأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ﴾ [الأنعام : ١١٩] ، وقال : ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ موعده ﴾ [هود : ١٧] ، وقال : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان : ١] ، وقال : ﴿ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ [آل عمران : ٢٠] وثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « أَعْطَيْتُ خُمْسًا لِمَنْ يُعْطِيهِ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي » وذكر منهن : « وكان النبى يبعث إلى قومه ، وبعث إلى الناس عامة » (٢) ؛ ولهذا قال : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤَسُّونَ بِالْآخِرَةِ يُؤَسُّونَ بِهِ ﴾ أى : كل من آمن بالله واليوم الآخر آمن بهذا الكتاب المبارك الذى أنزلناه إليك يا محمد ، وهو القرآن ﴿ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ أى : يقومون بما افترض عليهم ، من أداء الصلوات فى أوقاتها .

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيَهُمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْرَزُونَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِنَا تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ وَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْتُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَرَكَّبْتُمْ مَا حَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ نَقَطَعَ بَيْنَكُمْ وَصَلَ عَنكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ (٣)

يقول تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ أى : لا أحد أظلم ممن كذب على الله ، فجعل له

= أنها قراءة مجاهد أيضا (١١ / ٥٢٥ ، ٥٢٦) . بل جعلها « الأصوب من القراءة » : « أن يكون بالياء ، لا بالياء . على معنى : أن اليهود يجعلونه قراطيس يبدونها ويخفون كثيرا . ويكون الخطاب بقوله : ﴿ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ ﴾ لشركى قريش . هذا نص كلامه .

(١) هذا هو الحق . وهو يدل على بطلان ما يتلاعب به بعض المتصوفة بالذكر بكلمات مفردة من أسماء الله عز وجل .

(٢) رواه الشيخان وغيرهما فى حديث مطول ، من حديث جابر . انظر الفتح الكبير (١ / ١٩٩) .

شريكاً أو ولداً، أو ادعى أن الله أرسله إلى الناس ولم يرسله؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أَوْ قَالَ أَرْحَىٰ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحِ إِلَيْهِ ضِيَاءً﴾ قال عكرمة وقتادة: نزلت في مسليمة الكذاب. ﴿وَمَنْ قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ يعني: أو من ادعى أنه يعارض ما جاء من عند الله من الوحي مما يقتريه من القول، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا تَلَّيْنَا عَلَيْهِمُ آيَاتِنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: ٣١] ، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ﴾ أي: في سكراته وغمراته وكرباته، ﴿وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ﴾ أي: بالضرب ، كما قال: ﴿لَنْ نَبْطِئَ إِلَيْكَ لِتُفْتَلِنَا﴾ الآية [المائدة: ٢٨] ، وقال: ﴿وَيَسْطُورُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَيَسْتَنصِتُونَ إِلَى الْآيَةِ﴾ الآية [المتنحة: ٢٢] . قال الضحاك، وأبو صالح: ﴿بَاسِطُوا أَيْدِيَهُمْ﴾ أي: بالعذاب. وكما قال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ [الأنفال: ٢٥] ؛ ولهذا قال: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيَهُمْ﴾ أي: بالضرب لهم ، حتى تخرج أنفسهم من أجسادهم؛ ولهذا يقولون لهم: ﴿أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ ، وذلك أن الكافر إذا احتضر بشرته الملائكة بالعذاب والنكال، والأغلال والسلاسل، والجحيم والحميم، وغضب الرحمن الرحيم، فتتفرق روحه في جسده، وتعصى ونأبى الخروج ، فتضربهم الملائكة حتى تخرج أرواحهم من أجسادهم ، قائلين لهم: ﴿أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ أي: اليوم تهانون غاية الإهانة، كما كنتم تكذبون على الله، وتستكبرون عن اتباع آياته ، والانقياد لرسله. وقد وردت الأحاديث المتواترة في كيفية احتضار المؤمن والكافر، وهي مقرررة عند قوله تعالى: ﴿يُنَبِّئُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧] .

وقوله: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فِرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي: يقال لهم يوم معادهم هذا، كما قال: ﴿وَعَرَضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الكهف: ٤٨] ، أي: كما بدأناكم أعدناكم، وقد كنتم تنكرون ذلك وتستبعدونه، فهذا يوم البعث. وقوله: ﴿وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ﴾ أي: من النعم والأموال التي اقتنيتها في الدار الدنيا ﴿وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ ، وثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «يقول ابن آدم: مالي مالي ! وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأنتيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت، وما سوى ذلك فذهب وتاركه للناس» (١) .

وقوله: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ﴾ : تفرع لهم وتوبيخ على ما كانوا اتخذوا في الدنيا من الأنداد والأصنام والأوثان، ظانين أنها تنفعهم في معاشهم ومعادهم إن كان ثمَّ معاد، فإذا كان يوم القيامة تقطعت بهم الأسباب، وانزاح الضلال، وضل عنهم ما كانوا يفترون، ويناديهم الرب، جل جلاله ، على رؤوس الخلائق: ﴿أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [القصص: ٦٢ ، ٧٤] وقيل لهم: ﴿أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُعْبُدُونَ . مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُم أَوْ يَنْصُرُونَ﴾ [الشعراء: ٩٢ ، ٩٣] ؛ ولهذا قال ههنا: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ﴾ أي: في العبادة، لهم فيكم قسط في استحقاق العبادة لهم . ثم قال تعالى: ﴿لَقَدْ نَقَطَ بَيْنَكُمْ﴾ : قرئ بالرفع، أي: شملكم، وقرئ بالنصب، أي: لقد تقطع

(١) رواه مسلم (٢ / ٣٨٣ ، ٣٨٤) من حديث عبد الله بن الشخير . وكذلك رواه أحمد والترمذي والنسائي . وقد مضى عند تفسير الآية : (٢١٣) من سورة البقرة .

ما بينكم من الوصلات والأسباب والوسائل ﴿وَضَلَّ عَنْكُمْ﴾ أي: وذهب عنكم ﴿مَا كُنتُمْ تَرْعَوْنَ﴾ من رجوى الأصنام، كما قال: ﴿إِذْ تَبَرَأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ. وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كُنَّا نَدْرِكُهُمْ كَمَا نَدْرِكُهُمْ مِمَّا نَدْرِكُهُمْ مِنَ النَّارِ كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِبَارِحِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٦، ١٦٧]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا نَفَخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١]، وقال: ﴿إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِثْلَ دُونَ اللَّهِ وَإِنَّمَا اللَّهُ مُؤَدَّةُ يَدَيْكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمُ بَعْضًا وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمُ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمُ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥]، وقال: ﴿وَقِيلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمُ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ الآية [القصص: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاءُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ. ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فَتَنَّهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ. انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ٢٢ - ٢٤]، والآيات في هذا كثيرة جدا.

﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَجَعَلْنَاهُ تَفْسِيرًا﴾
 ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾
 ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النَّجْمَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْيَوْمِ الَّذِي بَدَأَ الْإِنْسَانَ فَقَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾

يخبر تعالى انه ﴿فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى﴾ أي: يشقه في الثرى، فتنب منه الزروع على اختلاف أصنافها من الحبوب والثمار ومن اختلاف ألوانها وأشكالها وطعومها من النوى؛ ولهذا فسر قوله: ﴿فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى﴾ بقوله: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْحَيِّ﴾ أي: يخرج النبات الحي من الحب والنوى، الذي كالجماد الميت، كما قال: ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيِّتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ. وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَحِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجْرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ. يَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ. سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يس: ٣٣ - ٣٦]. وقوله: ﴿وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ﴾ معطوف على ﴿فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى﴾ ثم فسره ثم عطف عليه قوله: ﴿وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ﴾. وقد عبروا عن هذا وهذا بعبارات كلها متقاربة مؤدية للمعنى، فمن قائل: يخرج الدجاجة من البيضة، والبيضة من الدجاجة، من قائل: يخرج الولد الصالح من الكافر، والكافر من الصالح، وغير ذلك من العبارات التي تتنظمها الآية وتشملها. ثم قال تعالى: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ﴾ أي: فاعل هذا هو الله وحده لا شريك له ﴿فَأَنزِلْنَا تَوْفِيقًا﴾ أي: فكيف تصرفون من الحق وتعدلون عنه إلى الباطل فتعبدون معه غيره ؟ !

وقوله: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا﴾ (١) أي: خالق الضياء والظلام، كما قال في أول السورة: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾، فهو سبحانه يخلق ظلام الليل عن غرة الصباح، فيضيء الوجود،

(١) «وجاعل الليل» - قراءة عاصم وحمره والكسائي وخلف والأعمش «وجعل الليل» بصيغة الفعل الماضي ونصب «الليل» مفعولا وهى قراءة حفص عن عاصم الثابتة فى مصاحف مصر، وقرا باقى الأربعة عشر «وجاعل الليل» بصيغة اسم الفاعل وجر «الليل» بالإضافة. وهى الثابتة فى المخطوطتين من ابن كثير هنا، فأثبتنا كذلك. والقراءتان صحيحتان.

ويستتير الأفق، ويضمحل الظلام، ويذهب الليل بدأته وظلام رواقه (١) ، ويجيء النهار بضيائه وإشراقه، كما قال : ﴿يُعْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾ [الأعراف: ١٥٤]، فبين تعالى قدرته على خلق الأشياء المتضادة المختلفة ، الدالة على كمال عظيمته وعظيم سلطانه، فذكر أنه فائق الإصباح وقابل ذلك بقوله : ﴿وَجَاعِلَ اللَّيْلِ سَكَنًا﴾ أى : ساجيا مظلما تسكن فيه الأشياء، كما قال : ﴿وَالضُّحَىٰ وَاللَّيْلَ إِذَا سَجَىٰ﴾ [الضحى: ١، ٢] ، وقال : ﴿وَاللَّيْلَ إِذَا بَغَىٰ وَالنَّهَارَ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ [الليل: ١، ٢] ، وقال : ﴿وَالنَّهَارَ إِذَا جَلَاهَا وَاللَّيْلَ إِذَا يَغْشَاهَا﴾ [الشمس: ٣، ٤] . وقال صهيب الرومى لامرأته - وقد عاتبته فى كثرة سهره : إن الله جعل الليل سكننا إلا لصهيب، إن صهيبا إذا ذكر الجنة طال شوقه ، وإذا ذكر النار طار نومه، رواه ابن أبى حاتم .

وقوله : ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ حُسْبَانًا﴾ أى : يجريان بحساب مَقَنَّ مَقَدَّر ، لا يتغير ولا يضطرب، بل كل منهما له منازل يسلكها فى الصيف والشتاء، فيترتب على ذلك اختلاف الليل والنهار طولاً وقصراً، كما قال : ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ﴾ الآية [يونس: ٥] ، وكما قال : ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠] ، وقال : ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسْحَرَاتٌ بَأْمَرِهِ﴾ [الأعراف: ١٥٤] . وقوله : ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ أى : الجميع جار بتقدير العزيز الذى لا يمانع ولا يخالف، العليم بكل شىء، فلا يعزب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء، وكثيراً ما إذا ذكر تعالى خلق الليل والنهار والشمس والقمر، يختم الكلام بالعزة والعلم، كما ذكر فى هذه الآية، وكما فى قوله : ﴿وَأَيَّةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلَمُونَ . وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [يس: ٣٧، ٣٨] . ولما ذكر خلق السموات والأرض وما فيهن فى أول سورة ﴿حم﴾ السجدة، قال : ﴿وَرَزَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [فصلت: ١٢] .

(١) قوله : « بدأته » : بفتح الدال الأولى وبعدها ألف ممدودة ثم دال مكسورة ثم همزة مكسورة . وقد رسمت فى المخطوطة العتيقة هكذا : « بداديه » ، ورسمت فى المخطوطة الأزهرية هكذا « بداديه » . أما الهمزة فى الأزهرية فموضعتها خطأ من الناسخ ، موضعها الصحيح قبل الألف ، لتقرأ ألفاً ممدودة . وأما الياء بعد الدال الثانية فهما ، فهكذا ترسم الهمزة المكسورة التى تكتب على ياء فى الخطوط القديمة ، كلها أو أكثرها . حتى فى ألفاظ القرآن . مثلاً لفظ « بارئكم » فى الآية (٥٤) من سورة البقرة مكرراً مرتين ، رسم فى المخطوطة الأزهرية (١ / ١٤٦) فى المرتين : « بارئكم » . وتسهبيل هذه الهمزة إلى ياء فصيح صحيح فى لغة العرب . ولم يحسن طابعو تفسير ابن كثير قراءة هذه الكلمة ، فاستسهلوا تغييرها ، فجعلوها « بسواده » ! وما أبعد ما بين الحرفين فى الرسم !!
وأما معناها ، فالمراد بها شدة الظلام فى آخر الشهر . وأصل الحرف فى نص لسان العرب (مادة : دأدا) ، قال :
« والدَّادَاءُ والدُّودُ والدُّودَاءُ والدَّدَاءُ : آخر أيام الشهر . قال :
نحن أجسرتنا كلَّ دَيْسَالٍ قَتَرٍ فى الحجِّ من قَبْلِ دَادِي المُوْتَمِرِ
أراد : دَادِي المُوْتَمِرِ ، فأبدل الهمزة ياءً ثم حذفتها لالتقاء الساكنين .
قال الأعشى :

تداركه فى مُصْبِلِ الأَلِّ بَعْدَ مَا مَضَى غَيْرَ دَادَاءٍ وَقَدْ كَادَ يَعْطَبُ

قال الأزهرى : أراد أن تداركه فى آخر ليلة من ليالى رجب . وقيل : الدَّادَاءُ والدَّدَاءُ ليلتا خمسة وست وعشرين . وقال ثعلب : العرب تسمى ليلة ثمان وعشرين وتسع وعشرين : الدَّادِيَّ ، والواحد : دَادَاءَةٌ . وفى الصحاح : الدَّادِيَّ ثلاث ليالٍ من آخر الشهر قبل ليالى المحاق ، والمحاق آخرها ، وقيل : هى هى . أبو الهيثم : الليالى الثلاث التى بعد المحاق سَبِينِ دَادِيَّ ، لأن القمر فيها بدأدئ إلى الغيوب . أى يسرع ، من دَادَاءَةِ البعير . وقال الاصمعى : فى ليالى الشهر ثلاث مُحَاقٍ ، وثلاث دَادِيَّ ، قال : والدَّادِيَّ الأواخر ، وأنشد :
أَبْدَى لَنَا عَرَّةً وَجِهَ بَادِي كَرْهَرَةِ النُّجُومِ فى الدَّادِيَّ

وقوله: ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ ﴾ قال بعض السلف : من اعتقد في هذه النجوم غير ثلاث فقد أخطأ وكذب على الله : أن الله جعلها زينة للسماء ، ورجوماً للشياطين ، وبهتدى بها في ظلمات البر والبحر . وقوله: ﴿ فَذُفُلْنَا الْآيَاتِ ﴾ أى : قد بيناها ووضحناها ﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ أى : يعقلون ويعرفون الحق ويتجنبون الباطل .

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾ ﴿ ٩٨ ﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا مَخْرُجًا مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنْ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿ ٩٩ ﴾

يقول تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ يعنى : آدم عليه السلام ، كما قال : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَكُمْ وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ﴾ [النساء : ١] . وقوله : ﴿ فَمُسْتَقَرٌّ مُسْتَوْدَعٌ ﴾ : اختلفوا فى معنى ذلك ، فعن ابن مسعود ، وابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، وغيرهم : ﴿ فَمُسْتَقَرٌّ ﴾ أى : فى الأرحام . قالوا أو أكثرهم : ﴿ وَمُسْتَوْدَعٌ ﴾ أى : فى الأصلاب . وعن ابن مسعود وطائفة عكس ذلك . وعن ابن مسعود أيضاً وطائفة : فمستقر فى الدنيا ، ومستودع حيث يموت . الأول هو الأظهر ، والله أعلم . وقوله : ﴿ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾ أى : يفهمون ويعون كلام الله ومعناه .

وقوله : ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ أى بقدر ، مباركاً ، رزقاً للعباد وغيثاً للخلائق ، رحمة من الله لخلقه ﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ ، كما قال : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا ﴾ [الأنبياء : ٣٠] . ﴿ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا ﴾ أى : زرعاً وشجراً أخضر ، ثم بعد ذلك يخلق فيه الحب والتمر ، ولهذا قال : ﴿ نَخْرُجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا ﴾ أى : يركب بعضه بعضاً ، كالسابل ونحوها ﴿ وَمِنْ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ ﴾ أى : جمع قنو وهى عذوق الرطب ﴿ دَانِيَةٌ ﴾ أى : قريبة من المتناول ، كما قال ابن عباس : يعنى بالقنوان الدانية : قصار النخل اللاصقة عذوقها بالأرض . رواه ابن جرير . قال ابن جرير : وأهل الحجاز يقولون : قِنْوَانٌ ، وقيس يقولون : قِنْوَانٌ ، قال امرؤ القيس :

فَأَتَتْ أَعَالِيهِ وَأَدَّتْ أَصُولُهُ
وَمَا لَ بَقِنْوَانٍ مِنَ الْبُسْرِ أَحْمَرًا

قال : وغميم يقولون : قِنْوَانٌ بالياء - قال : وهى جمع قنو ، كما أن صنوان جمع صنو .

وقوله : ﴿ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ ﴾ أى : ونخرج منه جنات من أعناب ، وهذان النوعان هما أشرف الشمار عند أهل الحجاز ، وربما كانا خيار الثمار فى الدنيا ، كما امتن الله بهما على عباده ، فى قوله : ﴿ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ﴾ [النحل : ٦٧] ، وكان ذلك قبل تحريم الخمر . وقال : ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ ﴾ [يس : ٣٤] . وقوله : ﴿ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ﴾ قال قتادة وغيره : يتشابه فى الورق ، قريب الشكل بعضه من بعض ، ويتخالف فى الثمار شكلاً وطعماً وطبعاً .

وقوله : ﴿ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ ﴾ أى : نضجه ، قاله البراء بن عازب ، وابن عباس ، وقتادة ، وغيرهم . أى : فكروا فى قُدْرَةِ خَالِقِهِ مِنَ الْعَدَمِ إِلَى الْوُجُودِ ، بعد أن كان حطْبًا صار عنبًا ورطبًا وغير ذلك ، مما خلق تعالى من الألوان والأشكال والطعوم والروائح ، كما قال تعالى : ﴿ وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ

تُجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزُرْعٌ وَنَخِيلٌ وَنَعْمَانٌ وَغَيْرُ نَعْمَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضَ لُبُغْضُهَا عَلَى بَعْضِ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ ولهذا قال ههنا: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لآيَاتٍ﴾ أى: للدلالات على كمال قدرة خالق هذه الأشياء وحكمته ورحمته ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أى: يصدقون به، ويتبعون رسله (١).

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُم بَيْنِينَ وَبَنَيْتَ بَيْنَهُمْ عِلْمًا سُوِّجِسْتَهُمْ وَتَعَلَّمْتَ عَمَّا يَصِفُونَ﴾

هذا ردّ على المشركين الذين عبدوا مع الله غيره، وأشركوا فى عبادته أن عبدوا الجن، فجعلوهم شركاء الله فى العبادة، تعالى الله عن شركهم وكفرهم.

فإن قيل: فكيف عبّدت الجن مع أنهم إنما كانوا يعبدون الأصنام؟ فالجواب: أنهم ما عبدوها إلا عن طاعة الجن وأمرهم إياهم بذلك، كما قال تعالى: ﴿إِن يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَانَا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا. لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا. وَلَأُصَلِّنَهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَأَمْرَنَّهُمْ فَلَيَتَّبِعُنَّ أَمْرًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرْنَا خُسْرَانًا مُّبِينًا. يَعُدُّهُمْ وَيَمْنِيَنَّهُمْ وَمَا يَعُدُّهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١١٧-١٢٠]، وقال تعالى: ﴿أَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠]، وقال إبراهيم لأبيه: ﴿يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾ [إبراهيم: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهِدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ. وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [يس: ٦٠، ٦١]، وتقول الملائكة يوم القيامة: ﴿سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيْنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرَهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤٦]، ولهذا قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ﴾ أى: وقد خلقهم، فهو الخالق وحده لا شريك له، فكيف يعبد معه غيره؟ ! كما قال إبراهيم، عليه السلام: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَحْتُونَ. وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصفات: ٩٥، ٩٦]. ومعنى الآية: أنه تعالى هو المستقل بالخلق وحده؛ فهذا يجب أن يُقرّد بالعبادة وحده لا شريك له.

وقوله تعالى: ﴿وَخَرَقُوا لَهُ بَيْنِينَ وَبَنَيْتَ بَيْنَهُمْ عِلْمًا﴾: بينه به تعالى على ضلال من ضل فى وصفه تعالى بأن له ولدًا، كما يزعم من قاله من اليهود فى العزير، ومن قال من النصارى فى المسيح، وكما قالت المشركون من العرب فى الملائكة: إنها بنات الله، تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا. ومعنى قوله: ﴿وَخَرَقُوا﴾ أى: واختلقوا واثفكوا، وتخرصوا وكذبوا، كما قاله علماء السلف. قال ابن جرير: فتأويل الكلام إذا: وجعلوا لله الجن شركاء فى عبادتهم إياه، وهو المنفرد بخلقهم بغير شريك ولا معين ولا ظهير ﴿وَخَرَقُوا لَهُ بَيْنِينَ وَبَنَيْتَ بَيْنَهُمْ عِلْمًا﴾ بحقيقة ما يقولون، ولكن جهلا بالله وبِعظمته، وأنه لا ينبغي لمن كان إليها أن يكون له بنون وبنات ولا صاحبة، ولا أن يشركه فى خلقه شريك. ولهذا قال تعالى: ﴿سُبْحَانَكَ تَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ﴾ أى: تقدس وتنزه وتعظم عما يصفه هؤلاء الجهلة الضالون من الأولاد والأنداد، والنظراء والشركاء.

(١) هنا بهامش المخطوطة العتيقة ما نصه: «آخر الجزء الأول من تفسير سورة الأنعام، من خط المؤلف، عفا الله عنه». وبهامش المخطوطة الأزهرية - ولكن بعد هذا الموضع بقليل - ما نصه: «آخر أول أجزاء المؤلف رحمه الله من هذه السورة. ومن هذه الآية ابتداء بتعليق هذا التفسير إلى آخر القرآن العظيم. ثم فسر من سورة البقرة إلى هاهنا. ووافق آخر التعليق يوم الجمعة رابع عشر ذى قعدة، سنة إحدى وأربعين وسبعمائة. فكتب الجميع فى نحو أربع سنين».

﴿بَدِيعَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ وَلَوْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾

﴿بَدِيعَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أى: مبدع السموات والأرض وخالقهما ومنشئهما ومحدثهما على غير مثال سبق، كما قال مجاهد والسدى. ومنه سميت البدعة بدعة؛ لأنه لا نظير لها فيما سلف. ﴿أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ﴾ أى: كيف يكون له ولد، ولم تكن له صاحبة؟ أى: والولد إنما يكون متولداً عن شيئين متناسين، والله لا يناسبه ولا يشابهه شيء من خلقه؛ لأنه خالق كل شيء، فلا صاحبة له ولا ولد، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا. لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا. تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا. أَنْ دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا. وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا. إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا. لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا وَكُلَّمَا آتَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ [مریم: ٨٨ - ٩٥]. ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾: فين تعالى أنه الذى خلق كل شيء، وأنه بكل شيء عليم، فكيف يكون له صاحبة من خلقه تناسبه، وهو الذى لا نظير له؟! فأنى يكون له ولد؟! تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾
﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾

يقول تعالى: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ أى: الذى خلق كل شيء ولا ولد له ولا صاحبة ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ﴾ فاعبدوه وحده لا شريك له، وأقروا له بالرحمانية، وإنه لا إله إلا هو، وأنه لا ولد له ولا والد، ولا صاحبة له ولا نظير ولا عديل ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ أى: حفيظ وراقب يدبر كل ما سواه، ويرزقهم ويكلؤهم بالليل والنهار.

وقوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ فيه أقوال للائمة من السلف: أحدها: لا تدركه فى الدنيا، وإن كانت تراه فى الآخرة، كما تواترت به الأخبار عن رسول الله ﷺ من غير ما طريق ثابت فى الصحاح والمسانيد والسنن، كما قالت عائشة: من زعم أن محمداً أبصر ربه فقد كذب، فإن الله يقول: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾. رواه ابن أبى حاتم، وثبت فى الصحيح وغيره عن عائشة من غير وجه. وخالفها ابن عباس، فعنه: إطلاق الرؤية، وعنه: رآه بفؤاده مرتين. والمسألة تذكر فى أول «سورة النجم» إن شاء الله.

وقال آخرون: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ أى: جميعها، وهذا مخصص بما ثبت من رؤية المؤمنين له فى الآخرة. وقال آخرون من المعتزلة - بمقتضى ما فهموه من هذه الآية: أنه لا يرى فى الدنيا ولا فى الآخرة. فخالقوا أهل السنة والجماعة فى ذلك، مع ما ارتكبه من الجهل بما دل عليه كتاب الله وسنة رسوله. أما الكتاب، فقوله تعالى: ﴿وَرُجُوعَ يَوْمَئِذٍ نَاصِرَةٌ. إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣]، وقال تعالى عن الكافرين: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُورُونَ﴾ [المطففين: ١٥]. قال الإمام الشافعى: فدل هذا على أن المؤمنين لا يُحْجَبُونَ عنه تبارك وتعالى. وأما السنة، فقد تواترت الأخبار عن أبى سعيد، وأبى هريرة، وأنس، وجريج، وصهيب، وبلال، وغير واحد من الصحابة عن النبى ﷺ: أن المؤمنين يرون الله فى الدار الآخرة فى العرصات، وفى روضات الجنات، جعلنا الله تعالى منهم بمنه وكرمه آمين. وقال آخرون: لا منافاة بين إثبات الرؤية ونفى الإدراك، فإن الإدراك أخص من الرؤية، ولا يلزم من نفي

الأخص انتفاء الأعم. ثم اختلف هؤلاء في الإدراك المنفى ، ما هو ؟ فقيل : معرفة الحقيقة ، فإن هذا لا يعلمه إلا هو وإن رآه المؤمنون ، كما أن من رأى القمر فإنه لا يدرك حقيقته وكنهه وماهيته ، فالمعظم أولى بذلك ، وله المثل الأعلى . وقال آخرون : المراد بالإدراك الإحاطة . قالوا : ولا يلزم من عدم الإحاطة عدم الرؤية ، كما لا يلزم من عدم إحاطة العلم عدم العلم ، قال تعالى : ﴿وَلَا يَحِيطُونَ بِهِ عَلَمًا﴾ [طه : ١١٠] ، وفي صحيح مسلم : «لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك» (١) . ولا يلزم من هذا عدم الثناء ، فكذلك هذا . وروى ابن أبي حاتم عن عكرمة ، أنه قيل له : ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾؟ قال : ألسنت ترى السماء؟! قال : بلى . قال : فكيف ترى؟! وقال آخرون في الآية بما رواه الترمذى في جامعه ، وابن أبي عاصم في كتاب «السنة» له ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه عن عكرمة قال : سمعت ابن عباس يقول : رأى محمد ربه تبارك وتعالى . فقلت : اليس الله يقول : ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ الآية؟ فقال لي : «لا أم لك . ذاك نوره ، الذى هو نوره ، إذا تجلّى بنوره لا يدركه شيء» . وفي رواية : «لا يقوم له شيء» . قال الحاكم : صحيح على شرط الشيخين ، ولم يخرجاه (٢) .

وفي معنى هذا الأثر ما ثبت فى الصحيحين ، عن أبى موسى الأشعري : «إن الله لا ينام ، ولا ينبغي له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار ، وعمل النهار قبل عمل الليل ، حجابه النور - أو : النار - لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه» (٣) . ونفى هذا الإدراك الخاص لا ينفي الرؤية يوم القيامة ، يتجلى لعباده المؤمنين كما يشاء . فأما جلاله وعظمته على ما هو عليه - تعالى وتقدس وتنزه - فلا تدركه الأبصار ؛ ولهذا كانت أم المؤمنين عائشة تثبت الرؤية فى الدار الآخرة وتنفىها فى الدنيا ، وتحتج بهذه الآية : ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ فالذى نفته الإدراك الذى هو بمعنى رؤية العظمة والجلال على ما هو عليه ، فإن ذلك غير ممكن للبشر ، ولا للملائكة ولا لشيء .

وقوله : ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ أى : يحيط بها ويعلمها على ما هي عليه ؛ لأنه خلقها كما قال تعالى : ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك : ١٤] . وقال أبو العالية فى قوله : ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ : اللطيف لاستخراجها ، الخبير بمكانها . والله أعلم . وهذا كما قال تعالى إخباراً عن لقمان فيما وعظ به ابنه : ﴿يَا بَنِي إِدْرِيءَ إِنِّي كُنْتُ مَبْتَغَىٰ حَيْةٍ مِّنْ حُرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان : ١٦] .

﴿فَدَجَاءَهُمْ بِصَابِرِينَ رَزَقَهُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾
وَكَذَلِكَ نَصْرَفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا أَدْرَسَتْ وَلَيْسَ لِنُفُوسِكُمْ لَقَوْمٌ يَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾

البصائر : هى البينات والحجج التى اشتمل عليها القرآن ، وما جاء به الرسول ﷺ . ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ﴾ مثل قوله : ﴿مَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ [الإسراء : ١٥] ؛ ولهذا قال : ﴿وَمَنْ

(١) صحيح مسلم (١ / ١٤٠ بولاق) من حديث من رواية أبى هريرة عن عائشة .
(٢) لم أجده فى المستدرك بهذا اللفظ ، أخفى على موضعه منه . وهو فى الترمذى (٤ / ١٨٩) « عن عكرمة ، عن ابن عباس ، قال : رأى محمد ربه ، قلت : اليس الله يقول «لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار» ؟ قال : ويحك ، ذاك إذا تجلّى بنوره الذى هو نوره ، وقد رأى محمد ربه مرتين » . قال الترمذى : « هذا حديث حسن غريب » .
(٣) مسلم (١ / ٦٤) فى حديث . ولم أجده فى البخارى ، فلا أدري أخفى على موضعه أم وهم الحفاظ ابن كثير ؟

عَمِي فَعَلَيْهَا ﴿١﴾ ، لما ذكر البصائر قال : ﴿ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا ﴾ أى : إنما يعود وبال ذلك عليه ، كقوله : ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارَ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبَ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [الحج : ١٤٦] . ﴿ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴾ أى : بحافظ ولا رقيب ، بل إنما أنا مبلغ والله يهدى من يشاء ويضل من يشاء . وقوله : ﴿ وَكَذَلِكَ نَصْرَفُ الْآيَاتِ ﴾ أى : وكما فصلنا الآيات فى هذه السورة ، من بيان التوحيد وأنه لا إله إلا هو ، هكذا نوضح الآيات ونفسرها وتبينها فى كل موطن لجهالة الجاهلين ، وليقول المشركون والكافرون المكذوبون : دَارَسْتَ يَا مُحَمَّدُ مَنْ قَبْلَكَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَقَارَأْتَهُمْ وَتَعَلَّمْتَ مِنْهُمْ (١) . هكذا قال ابن عباس ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير ، وغيرهم . وروى الطبرانى عن ابن عباس قال : ﴿ دَارَسْتَ ﴾ : تلوت ، خاصمت ، جادلت (٢) .

وهذا كما قال تعالى إخباراً عن كذبهم وعنادهم : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا فِكْ أَفْتَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا . وَقَالُوا أَطِيبُوا الْأَوَّلِينَ اكْتَبِهَا فِيهِ تَمْلِي عَلَيْهِ بَكْرَةٌ وَأَصِيلًا ﴾ [الفرقان : ٤ ، ٥] ، وقال تعالى إخباراً عن زعيمهم وكاذبهم : ﴿ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ . فَقَتَلَ كَيْفَ قَدَرَ . ثُمَّ قَتَلَ كَيْفَ قَدَرَ . ثُمَّ نَظَرَ . ثُمَّ مَسَّ وَبَسَرَ . ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ . فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ . إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴾ [المدثر : ١٨-٢٥] .

وقوله : ﴿ وَلَيْسِنَّ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ أى : ولنوضحه لقوم يعلمون الحق فيتبعونه ، والباطل فيجتنبونه . فلهذا تعالى الحكمة البالغة فى إضلال أولئك ، وبيان الحق لهؤلاء . كما قال تعالى : ﴿ يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا ﴾ [البقرة : ٢٦] ، وقال تعالى : ﴿ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ل وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ . وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [٣] [الحج : ٥٣ ، ٥٤] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عَدُوِّهِمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَتَّقُوا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيُزَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ [المدثر : ٣١] .

وقال تعالى : ﴿ وَنَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خُسَارًا ﴾ [الإسراء : ٨٢] ، وقال تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقُرْهُ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ ينادُونَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ [فصلت : ٤٤] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الله أنزل القرآن هدى للمتقين ، وأنه يضل به من يشاء ويهدى من يشاء . ولهذا قال ههنا : ﴿ وَكَذَلِكَ نَصْرَفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَارَسْتَ وَلَيْسِنَّ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ . وقرأ بعضهم : ﴿ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ ﴾ . قال التميمي ، عن ابن عباس : « درست » أى : قرأت وتعلمت . وكذا قال مجاهد ، والسدى والضحاك ، وغير واحد . وقال الحسن : « وليقولوا دَرَسْتَ » ، يقول : تقادمت وانمحت . وروى عبد الرزاق عن ابن الزبير : إن صبيانا يقرؤون ههنا : « دَارَسْتَ » ، وإنما هى : « دَرَسْتَ » . وقال شعبة : حدثنا أبو إسحاق الهمداني ، قال : هى فى قراءة ابن مسعود : « دَرَسْتَ » يعنى بغير ألف ، بنصب السين ووقف على التاء . قال ابن جرير : ومعناه : انمحت وتقادمت ، أى : أن هذا

(١) فسرها المؤلف رحمه الله على قراءة « درست » بإثبات الألف بين الال والراء . وهى قراءة ابن عباس ، كما روى ذلك عنه الطبري (١٣٧١٧) . وهى أيضا قراءة ابن كثير القارئ وأبى عمرو . وكتبت فى الآية فى المخطوطتين بإثبات الألف ، على هذه القراءة . وقراءة حفص التى فى مصحفنا : « درست » بدون ألف . والقراءتان صحيحتان .

(٢) إسناده جيد . وكذلك رواه الطبري عن ابن عباس (١٣٧١٩ ، ١٣٧٢٠) .

(٣) ما بين المعقوفتين سقط من المطبوعة والمطبوع من عمدة التفسير ، وكذا المخطوطة الأزهرية . ولا يتم الاستشهاد إلا به . (البار) .

الذى تلتوه علينا قد مر بنا قديماً، وتناولت مدته . وقال سعيد بن ابى عروبة ، عن قتادة أنه قرأها : «دَرَسْتَ» أى : قرأت وتعلّمت . وروى ابن مردويه عن أبى بن كعب قال : أقرأنى رسول الله ﷺ : «وليقولوا دَرَسْتَ» . ورواه الحاكم وقال : يعنى بجزم السين ، ونصب التاء ، ثم قال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه ^(١) .

﴿ اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾ ﴾

يقول تعالى أمراً لرسوله ﷺ . ولمن اتبع طريقته : ﴿ اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ﴾ أى : اقتد به ، واقتف أثره ، واعمل به ؛ فإن ما أوحى إليك من ربك هو الحق الذى لا مربة فيه ؛ لأنه لا إله إلا هو ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ أى : اعف عنهم واصفح ، واحتمل أذاهم ، حتى يفتح الله لك وينصرك ويُظفرك عليهم . واعلم أن الله حكمة فى إضلالهم ، فإنه لو شاء لهدى الناس كلهم جميعاً ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى ﴾ [الانعام : ٣٥] . ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا ﴾ أى : بل له المشيئة والحكمة فيما يشاؤه ويختاره ، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون . وقوله : ﴿ وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا ﴾ أى : حافظاً تحفظ أعمالهم وأقوالهم ﴿ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴾ أى : موكل على أرزاقهم وأمورهم إن عليك إلا البلاغ ، كما قال تعالى : ﴿ فَذَكَرْنَا أَنْتَ مَذْكُورٌ . نَسْتُ عَلَيْهِمْ بِمُصِطِرٍ ﴾ [الناشية : ٢١ ، ٢٢] ، وقال ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴾ [الرعد : ٤٠] .

﴿ وَلَا تَسِبُوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسبُوا اللَّهَ عَدَاوَةً بَغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَلَّمَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ ﴾

يقول تعالى ناهياً لرسوله ﷺ والمؤمنين عن سب آلهة المشركين ، وإن كان فيه مصلحة ، إلا أنه يترتب عليه مفسدة أعظم منها ، وهى مقابلة المشركين بسبب إلى المؤمنين ، وهو الله لا إله إلا هو . كما قال ابن عباس فى هذه الآية : قالوا : يا محمد ، لتنتهين عن سبب آلهتنا ، أو لنهجون ربك ، فنهاهم الله أن يسبوا أوثانهم ﴿ فَيَسبُوا اللَّهَ عَدَاوَةً بَغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ .

ومن هذا القبيل - وهو ترك المصلحة لمفسدة أرجح منها - ما جاء فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : «لمعون من سب والديه» . قالوا : يا رسول الله ، وكيف يسب الرجل والديه؟ قال : «يسب أباً الرجل فيسب أباه ، ويسب أمه فيسب أمه» . أو كما قال ﷺ ^(٢) .

وقوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَلَّمَهُمْ ﴾ أى : وكما زيننا لهؤلاء القوم حباً أصنامهم والمحاماة لها والانتصار ، كذلك زيننا لكل أمة ، أى : من الأمم الخالية على الضلال - عملهم الذى كانوا فيه ، والله الخجة البالغة ، والحكمة التامة فيما يشاؤه ويختاره ﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ ﴾ أى : معادهم ومصيرهم ﴿ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أى : يجازيهم بأعمالهم ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

(١) المستدرک (٢ / ٢٣٨ ، ٢٣٩) ووافقه الذهبى على تصحيحه .

(٢) مضى عند تفسير الآيات : (٢٩ - ٣١) من سورة النساء . من رواية البخارى عن عبد الله بن عمرو ، بلفظ : « من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه ، قالوا : وكيف يلعن الرجل والديه ؟ . . . » . وهو أيضاً فى المسند (٦٥٢٩ ، ٦٤٨٠ ، ٧٠٢٩) وصحيح مسلم (١ / ٣٧ بولاق) بنحوه ، والمؤلف الحافظ ذكره هنا بالتمنى لا باللفظ .

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ وَقُلْ أَفَدَّبْتُمْ وَأَنْصَرْتُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرْتُمْ فِي صُدُغِهِمْ بِعَصَاهُ ﴿١٠٩﴾

يقول تعالى إخباراً عن المشركين: إنهم أقسموا بالله جهد أيمانهم، أى: حلفوا أيماناً مؤكدة ﴿لئن جاءتهم آية﴾ أى: معجزة وخارق، ﴿ليؤمنن بها﴾ أى: ليصدقنها ﴿قل إنما الآيات عند الله﴾ أى: قل يا محمد لهؤلاء الذين يسألونك الآيات تعنتاً وكفراً وعناداً، لا على سبيل الهدى والاسترشاد: إنما مرجع هذه الآيات إلى الله، إن شاء جاءكم بها، وإن شاء ترككم. روى ابن جرير عن محمد بن كعب القرظي قال: كلم رسول الله ﷺ قريشاً، فقالوا: يا محمد، تخبرنا أن موسى كان معه عصاً يضرب بها الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا، وتخبرنا أن عيسى كان يحيى الموتى، وتخبرنا أن ثمود كانت لهم ناقة، فأتنا من الآيات حتى نصدقك! فقال رسول الله ﷺ: «أى شيء تحبون أن آتيكم به؟». قالوا: نجعل لنا الصفا ذهباً. فقال لهم: «فإن فعلت تصدقوني؟». قالوا: نعم، والله لئن فعلت لتبتعنك أجمعين. فقام رسول الله ﷺ يدعو، فجاءه جبريل، عليه السلام، فقال له: ما شئت، إن شئت أصبح ذهباً، ولئن أرسل آية فلم يصدقوا عند ذلك ليعذبهم، وإن شئت فأتركهم حتى يتوب تائبهم. فقال رسول الله ﷺ: «بل يتوب تائبهم». فأنزل الله: ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ﴾ إلى قوله: ﴿يَجْهَلُونَ﴾. وهذا مرسل، وله شواهد من وجوه أخر (١). وقال الله تعالى: ﴿ وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون وأتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً ﴾ [الإسراء: ٥٩].

وقوله تعالى: ﴿ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ قيل: المخاطب بـ ﴿ مَا يُشْعِرُكُمْ ﴾: المشركون، وإليه ذهب مجاهد، كأنه يقول لهم: وما يدريك بصدقكم في هذه الأيمان التي تقسمون بها. وعلى هذا فالقراءة: «إنها إذا جاءت لا يؤمنون» بكسر «إنها» على استئناف الخبر عنهم بنفى الإيمان عند مجيء الآيات التي طلبوها. وقرأ بعضهم: «أنها إذا جاءت لا تؤمنون» بالثاء المثناة من فوق. وقيل: المخاطب بقوله: ﴿ وَمَا يُشْعِرُكُمْ ﴾ المؤمنون، أى: وما يدريكم أيها المؤمنون، وعلى هذا فيجوز فى قوله: ﴿ إِنَّهَا ﴾ الكسر كالأول والفتح على أنه معمول ﴿ يُشْعِرُكُمْ ﴾ (٢). وعلى هذا فتكون «لا» فى قوله: ﴿ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ صلة كما فى قوله: ﴿ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾ [الأعراف: ١٢]، وقوله: ﴿ وَحَرَامٌ عَلَيْنَ قَرْنًا أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يُرْجَعُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٩٥]. أى: ما منعك أن تسجد إذ أمرتك، وحرام أنهم يرجعون. وتقديره فى هذه الآية: وما يدريكم - أيها المؤمنون الذين تودون لهم ذلك حرصاً على إيمانهم - أنها إذا جاءتهم الآيات يؤمنون. وقال بعضهم: «إنها» بمعنى لعلها. قال ابن جرير: وذكروا أن ذلك كذلك فى قراءة أبى بن كعب. قال: وقد ذكر عن العرب سماعاً: «أذهب إلى السوق أنك تشتري لنا شيئاً» بمعنى: لعلك تشتري. وقد اختار هذا القول ابن جرير وذكر عليه شواهد من أشعار العرب والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿ وَقُلِّبْ أَفْدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾. قال ابن عباس فى هذه الآية: لما

(١) الطبرى (١٣٧٤٦).

(٢) قراءة «إنها» بكسر الهمزة - هى قراءة الفارئ ابن كثير وأبى عمرو، وقرأ باقى السبعة بفتحها. وقراءة «تؤمنون» ببناء الخطاب قراءة ابن عامر وحزمة، وبياء الغائب باقى السبعة.

جحد المشركون ما أنزل الله لم تثبت قلوبهم على شيء وردت عن كل أمر . وقال مجاهد: ونحول بينهم وبين الإيمان ولو جاءتهم كل آية ، فلا يؤمنوا ، كما حلنا بينهم وبين الإيمان أول مرة . وكذا قال عكرمة . وعن ابن عباس أنه قال: أخبر الله ما العباد قائلون قبل أن يقولوه وعملهم قبل أن يعملوه . قال: ﴿ وَلَا يَبْنِيكَ مِثْلَ خَيْرٍ ﴾ [فاطر: ١٤] ، ﴿ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى لَوْلَا مَا قَرَّبْتُ فِي حَيْبِ اللَّهِ ﴾ إلى قوله: ﴿ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [الزمر: ٥٦ - ٥٨] ، فأخبر سبحانه أنهم لو ردوا لم يقدرُوا على الهدى ، وقال: ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ [الأنعام: ٢٨] ، وقال: ﴿ وَتَقَبَّ أُنْفُسَهُمْ وَأَنْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوْلَ مَرَّةً ﴾ قال: لو رُدُّوا إلى الدنيا لحيل بينهم وبين الهدى ، كما حلنا بينهم وبينه أول مرة وهم في الدنيا (١) . وقوله: ﴿ وَتَذَرُهُمْ ﴾ أى: تتركهم ﴿ فِي طُغْيَانِهِمْ ﴾ قال ابن عباس والسدى: فى كفرهم . وقال أبو العالية وقادة: فى ضلالهم ﴿ يَعْصُونَ ﴾ قال الاعمش: يلعبون . وقال ابن عباس ، ومجاهد ، وغيرهما : فى كفرهم يترددون .

الجزء

٨

﴿ وَلَوْ أَنَّا زَلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَسَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾

يقول تعالى: ولو أننا أجبنا سؤال هؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم ﴿ لئن جاءتهم آية لئؤمنن بها ﴾ فنزلنا عليهم الملائكة، أى: تخبرهم بالرسالة من الله بتصديق الرسل، كما سألوا فقالوا: ﴿ أَوْ نَأْتِي بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قُبُلًا ﴾ [الإسراء: ٩٢] و﴿ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ ﴾ [الأنعام: ١٢٤] ، وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا فى أنفسهم وعزوا عزوا كبيرا ﴿ [الفرقان: ٢١] ﴾ . ﴿ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى ﴾ أى: فأخبروهم بصدق ما جاءتهم به الرسل ﴿ وَحَسَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا ﴾ - قرأ بعضهم: ﴿ قُبُلًا ﴾ بكسر القاف وفتح الباء، من المقابلة، والمعانية . وقرأ آخرون ﴿ قُبُلًا ﴾ بضمهما (٢) ، قيل: معناه من المقابلة والمعانية أيضا، قاله ابن عباس . وبه قال قتادة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم . وقال مجاهد: ﴿ قُبُلًا ﴾: أفواجا، قبلا قبلا، أى: تعرض عليهم كل أمة من الأمم فتخبرهم بصدق الرسل فيما جاؤوهم به ﴿ مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ أى: إن الهداية إليه، لا إليهم . بل يهدى من يشاء ويضل من يشاء، وهو الفعال لما يريد، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون، تعلمه وحكمته، وسلطانه وقهره وغلبته . وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ . وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ [يونس: ٩٦ ، ٩٧] .

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ عُرُوزًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ ﴿ وَلِنَصِّغَنَّ إِلَيْهِ أَفْعَدَةَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِنَرِّضُوهُمُ وَيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُّقْتَرِفُونَ ﴾

يقول تعالى: كما جعلنا لك - يا محمد - أعداء يخالفونك، ويعادونك ويعاندونك - جعلنا لكل

(١) رواه الطبرى عن ابن عباس (١٣٧٥٤) .

(٢) « قبلا » - بكسر القاف وفتح الباء : قراءة نافع وابن عامر . وقراءة ضمها لباقي السبعة .

نبي من قبلك أيضا أعداء فلا يهيدنك ذلك (١) ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِنْ يَكْذِبُونَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ [فاطر : ٤] . وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبْرُوا عَلَى مَا كَذَّبُوا وَأَوَدُوا حَتَّى آتَاهُمْ نَصْرًا ﴾ [الأنعام : ١٣٤] ، وقال تعالى : ﴿ مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [فصلت : ٤٣] ، وقال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴾ [الفرقان : ٤٣] . وقال ورقة بن نوفل لرسول الله ﷺ : إنه لم يأت أحد بمثل ما جئت به إلا عودي .

وقوله : ﴿ شَيَاطِينُ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ ﴾ بدل من ﴿ عَدُوًّا ﴾ أى : لهم أعداء من شياطين الإنس والجن ، والشياطين كل من خرج عن نظيره بالشر ، ولا يعادى الرسل إلا الشياطين من هؤلاء ، قبحهم الله ولعنهم . قال قتادة فى قوله : ﴿ شَيَاطِينُ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ ﴾ : من الجن شياطين ، ومن الإنس شياطين ، يوحى بعضهم إلى بعض ، قال قتادة : وبلغنى : أن أبا ذر كان يوما يصلى ، فقال النبى ﷺ : « تعوذت يا أبا ذر من شياطين الإنس والجن ؟ » . فقال : أو إن من الإنس لشياطين ؟ فقال رسول الله ﷺ : « نعم » . وهذا منقطع بين قتادة وأبى ذر . وروى متصلًا ، فرواه الإمام أحمد عن أبى ذر قال : آتيت النبى ﷺ وهو فى المسجد ، فجلست فقال : « يا أبا ذر ، هل صليت ؟ » . قلت : لا . قال : « قم فصل » . قال : فقمصت فصليت ، ثم جلست ، فقال : « يا أبا ذر ، تعوذ بالله من شر شياطين الإنس والجن » . قال : قلت : يا رسول الله ، وللإنس شياطين ؟ قال : « نعم » . وذكر تمام الحديث بطوله . وكذا رواه الحافظ ابن مردويه (٢) . وروى ابن أبى حاتم عن أبى أمامة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « يا أبا ذر ، تعوذت من شياطين الجن والإنس ؟ » . قال : يا رسول الله ، وهل للإنس شياطين ؟ قال : « نعم ، شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعضهم زخرف القول غرورا » (٣) . فهذه طرق لهذا الحديث ، ومجموعها يفيد قوته وصحته ، والله أعلم . وعلى كل حال فالصحيح ما تقدم من حديث أبى ذر : إن للإنس شياطين منهم ، وشيطان كل شىء مارده ، ولهذا جاء فى صحيح مسلم ، عن أبى ذر ، أن رسول الله ﷺ قال : « الكلب الأسود شيطان » (٤) . ومعناه - والله أعلم : شيطان فى الكلاب .

وقال مجاهد فى تفسير هذه الآية : كفار الجن شياطين ، يوحون إلى شياطين الإنس ، كفار الإنس ، زخرف القول غرورا .

وروى ابن أبى حاتم ، عن عكرمة قال : قدمت على المختار فأكرمنى وأنزلىنى حتى كان يتعاهد مبيتى بالليل ، قال : فقال لى : اخرج فَحَدَّثَ النَّاسَ . قال : فخرجت ، فجاء رجل فقال : ما تقول فى الوحى ؟ فقلت : الوحى وحيان ، قال الله تعالى : ﴿ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ ﴾ [يوسف : ٣] ، وقال تعالى : ﴿ شَيَاطِينُ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ قال : فهموا بى أن يأخذونى ، فقلت : ما لكم ذاك ، إني مفتيكم وضيغكم . فتركونى . وإنما عرَّضَ عكرمة بالمختار - وهو ابن أبى عبيد - قبحه الله ،

(١) أى : لا يزعمنك ذلك . يقال : « هاده الشىء يهده هيداً وهاداً » : إذا أفرغه وكربه وتقول : « ما يهدينى ذلك » أى : ما يزعمنى ولا أكثرث له ولا أباليه . وغير الطابعون هذا الحرف ، فكتوبه : « فلا يحزنك ذلك » ! وهو تصرف غير جيد .
(٢) مضى بطوله عند تفسير الآية : (٢٥٥) من سورة البقرة ، وبيننا صحته وتخريجه هناك . ومضى بعضه أيضا عند الاستعاذة والآية : (١٤) ، والآيتين : (٣٥ ، ٣٦) من سورة البقرة .

(٣) هو جزء من حديث مطول ، رواه أحمد فى المسند (٥ / ٢٦٥ ، ٢٦٦ حلى) . وذكره الهيمى بطوله فى مجمع الزوائد (١ / ١٥٩) ونسبه لأحمد والطبرانى فى الكبير ، وقال : « ومداره على بن يزيد ، وهو ضعيف » .

(٤) من حديث مضى فى آخر الكلام فى الاستعاذة والآية : (٤) من سورة المائدة .

وكان يزعم أنه يأتيه الوحى ، وقد كانت أخته صفية تحت عبد الله بن عمر ، وكانت من الصالحات ، ولما أخبر عبد الله بن عمر أن المختار يزعم أنه يوحى إليه قال : صدق ! قال الله تعالى : ﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ ﴾ (١) [الأنعام: ١١٢] .

وقوله تعالى : ﴿ يُوحَىٰ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ أى : يلقى بعضهم إلى بعض القول المزين المزخرف ، وهو المزوق الذى يغتر سامعه من الجهلة بأمره ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ﴾ أى : وذلك كله بقدر الله وقضائه وإرادته ومشيبته أن يكون لكل نبي عدو من هؤلاء ﴿ فَذَرَهُمْ ﴾ أى : فدعهم ﴿ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ أى : يكذبون ، أى : دع أذاهم وتوكل على الله فى عداوتهم ، فإن الله كافيك وناصرك عليهم .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَتَصْغَىٰ إِلَيْهِ ﴾ أى : ولتميل إليه ، قاله ابن عباس ﴿ أَفَلَا تُدْعُونَ الَّذِينَ لَآ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ﴾ أى : قلوبهم وعقولهم وأسماعهم . وقال السدي : قلوب الكافرين ﴿ وَلَيَرْضَوْهُ ﴾ أى : يحويه ويريدوه . وإنما يستجيب لذلك من لا يؤمن بالآخرة ، كما قال تعالى : ﴿ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِحٌ الْجَاهِلِينَ ﴾ [الصفات: ١٦١-١٦٣] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّكُمْ لَقِي قَوْلٍ مُّخْتَلَفٍ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴾ [الذاريات: ٨ ، ٩] . وقوله : ﴿ وَلَيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُّقْتَرِفُونَ ﴾ قال ابن عباس : وليكتسبوا ما هم مكتسبون . وقال السدي ، وابن زيد : وليعملوا ما هم عاملون .

﴿ أَفَعَصَىٰ اللَّهُ أَنْتَ يَا حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونُونَ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿

يقول تعالى لبيه محمد ﷺ : قل لهؤلاء المشركين بالله غيره ، الذين يعبدون غيره : ﴿ أَفَعَصَىٰ اللَّهُ أَنْتَ يَا حَكَمًا ﴾ أى : بينى وبينكم ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا ﴾ أى : مبينا ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ ﴾ أى : من اليهود والنصارى ﴿ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ ﴾ أى : بما عندهم من البشارات بك من الأنبياء المتقدمين ﴿ فَلَا تَكُونُونَ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ كقوله : ﴿ فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يُقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَلْبِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونُونَ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ [يونس: ٩٤] ، وهذا شرط ، والشرط لا يقتضى وقوعه ؛ ولهذا جاء عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لا أشك ولا أسأل » (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ قال قتادة : صدقا فيما قال ، وعدلا فيما حكم . يقول : صدقا فى الإخبار وعدلا فى الطلب ، فكل ما أخبر به فحق لا مرية فيه ولا شك ، وكل ما أمر به فهو العدل الذى لا عدل سواه ، وكل ما نهى عنه فباطل ، فإنه لا ينهى إلا عن مفسدة ، كما قال : ﴿ يَا مَعْرُوفُ بِتَمَامِهِمْ وَعَنِ الْمُنْكَرِ يُجِزِلْ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ ﴾ [الاعراف: ١٥٧] . ﴿ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ﴾ أى : ليس أحد يعقب حكمه تعالى لا فى الدنيا ولا فى الآخرة ﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ ﴾ لأقوال عباده

(١) مضى هذا الخبر من رواية ابن أبى حاتم فى آخر الكلام فى الاستعاذة . الآية : (٤) من سورة المائدة .

(٢) سيذكره المؤلف الحافظ عند تفسير الآية (٩٤) من سورة يونس : « قال قتادة بن دعامة : بلغنا أن رسول الله ﷺ قال : لا أشك ولا أسأل » . وكذلك ذكره السيوطى (٣ / ٣١٧) عن قتادة ، ونسبه لعبد الرزاق وابن جرير . وأقوى منه وأثبت ما ذكره السيوطى عن ابن عباس ، قال : « لم يشك رسول الله ﷺ . ولم يسأل » . ونسبه لابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه والضياء فى المختارة .

﴿الْعَلَمِ﴾ بحركاتهم وسكناتهم، الذي يجازى كل عامل بعمله .

﴿ وَإِنْ تَطَّعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ (١) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١﴾

يخبر تعالى عن حال أكثر أهل الأرض من بنى آدم : أنه الضلال ، كما قال تعالى : ﴿وَتَقَدَّضَلَّ قَلْبَهُمْ أَكْثَرَ الْأُولِينَ﴾ [الصفات: ٧١] ، وقال تعالى : ﴿وَمَا أَكْثَرَ النَّاسَ لَوْ حُرِّصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١١٠-١١١] ، وهم فى ضلالهم ليسوا على يقين من أمرهم، وإنما هم فى ظنون كاذبة وحسبان باطل، ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾، فإن الخرص هو الخزر، ومنه خرص النخل، وهو خرز ما عليها من التمر وكذلك كله عن قدر الله ومشيئته ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ فيسرهم لذلك ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ فييسره لذلك، وكل ميسر لما خلق له .

﴿ فَكُلُوا مِمَّا ذَكَرَ اللَّهُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴾ (٢) وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذَكَرَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرَّرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَاءِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴿٢﴾

هذا إباحة من الله تعالى لعباده المؤمنين أن يأكلوا من الذبائح ما ذكر عليه اسمه، ومفهومه: أنه لا يباح ما لم يذكر اسم الله عليه، كما كان يستبيحه كفار المشركين من أكل الميتات، وأكل ما ذبح على النصب وغيرها. ثم نذب إلى الأكل مما ذكر اسم الله عليه، فقال: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذَكَرَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ أى: قد بين لكم ما حرم عليكم ووضحه. وقرأ بعضهم: ﴿فَصَّلْ﴾ بالتشديد، وقرأ آخرون بالتخفيف (٢) ، والكل بمعنى البيان والوضوح . ﴿إِلَّا مَا اضْطُرَّرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ أى: إلا فى حالة الاضطرار، فإنه يباح لكم ما وجدتم. ثم بين جهالة المشركين فى آرائهم الفاسدة من استحلالهم الميتات، وما ذكر عليه غير اسم الله تعالى: فقال: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَاءِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾ أى: هو أعلم باعتدائهم وكذبهم وافتراءهم .

﴿ وَذَرُوا ظَهْرَ الْأَيْمَنِ وَالْبَاطِنَةَ إِنَّ الدَّيْسَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيَجْرُونَ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ (٣)

قال مجاهد: ﴿وَذَرُوا ظَهْرَ الْإِثْمِ وَالْبَاطِنَةَ﴾: معصيته فى السر والعلانية ، وفى رواية عنه : هو ما ينوى مما هو عامل . وقال قتادة : قلبه وكثيره، سره وعلانيته . وقال السدى : ظاهره : الزنا مع البغايا ذوات

(١) هذه الآيات وما فى معناها تدفع بالظلال نوع الحكم الذى يخدعون به الناس ويسمونه « الديمقراطية » ، إذ هى حكم الاكثورية الموسومة بالظلال ، هى حكم الدهماء والفوغاء .

(٢) لعلى الحافظ ابن كثير وهم وانتقل نظره فى حكاية القراءتين فى قوله « فصل » . فإن قراءة « فصل » بفتح الفاء والصاد مخففة - قراءة شاذة ، لم تحك إلا عن عطية العوفى - وهو ضعيف - حكاها عنه الطبرى (١٢ / ٧٠) ، وردها ، وكذلك حكاها عنه أبو حيان فى البحر (٤ / ٢١١) ثم هى ليست بمعنى بين واضح . بل فسرها الطبرى « بمعنى وقد أتاكم حكم الله فيما حرم عليكم » . وأما القراءات المعروفة فى هذه الآية ، فهى ثلاث قراءات : فقرأ نافع وحضض وأبو جعفر ويعقوب : « فصل » و « حرم » بفتح أولهما بالبناء للفاعل . وقرأهما ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر بضم أولهما بالبناء للمفعول . وقرأهما أبو بكر وحمزة والكسائى وخلف بنىء « فصل » للفاعل و « حرم » للمفعول - كل ذلك مع تشديد الصاد من « فصل » .

الرايات، وباطنه: الزنا مع الخليفة والصدائق والأخذان . وقال عكرمة: ظاهره: نكاح ذوات المحارم .
والصحيح أن الآية عامة في ذلك كله ، وهى كقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا
بَطَّنَ ﴾ الآية الاعراف: ١٣٣؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسُونَ الْإِثْمَ سَجَزُونَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرُونَ ﴾ أى : سواء
كان ظاهراً أو خفياً، فإن الله سيجزيهم عليه .

روى ابن أبى حاتم عن النّوّاس بن سمرعان قال: سألت رسول الله ﷺ عن الإثم فقال : « الإثم
ما حاك في صدرك، وكرهت أن يطلع الناس عليه » (١) .

﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرْ أَسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لِيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَآئِهِمْ
لِيُجْنِدُوا لَكُمْ وَإِنَّ أَطْعَمْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ (٢)

استدل بهذه الآية الكريمة من ذهب إلى أن الذبيحة لا تحل إذا لم يذكر اسم الله عليها، ولو كان
الذبايح مسلما، وقد اختلف الأئمة، رحمهم الله ، فى هذه المسألة على ثلاثة أقوال:

فمنهم من قال: لا تحل هذه الذبيحة بهذه الصفة، وسواء متروك التسمية عمداً وسهواً. وهو مروى
عن ابن عمر، ونافع مولاة، والشعبى، وابن سيرين. وهو رواية عن مالك، ورواية عن أحمد بن حنبل
نصرها طائفة من أصحابه المتقدمين والمتأخرين، وهو اختيار أبى ثور، وداود الظاهرى، واحتجوا لمذهبهم
هذا بهذه الآية، وبقوله فى آية الصيد: ﴿ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ [المائدة: ٤]. ثم قد
أكد فى هذه الآية بقوله: ﴿ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ﴾. والضمير قيل: عائد على الأكل، وقيل: عائد على الذبيح لغير
الله ، وبالأحاديث الواردة فى الأمر بالتسمية عند الذبيحة والصيد، كحديثى عدى بن حاتم وأبى ثعلبة:
«إذا أرسلت كلبك المعلم وذكرت اسم الله عليه فكل ما أمسك عليك». وهما فى الصحيحين (٢) ،
وحديث رافع بن خديج : «ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه فكلوه». وهو فى الصحيحين أيضاً (٣) ،
وحديث ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال للجن: «لكم كل عظم ذكر اسم الله عليه». رواه مسلم.
وحديث جندب بن سفيان البجلي قال: قال رسول الله ﷺ: «من ذبح قبل أن يصلى فليذبح مكانها
أخرى، ومن لم يكن ذبح حتى صلينا فليذبح باسم الله». وعن عائشة : أن ناسا قالوا: يا رسول الله،
إن قوما يأتوننا باللحم لا ندرى: أذكر اسم الله عليه أم لا؟ قال: «سموا عليه أنتم وكلوا». قالت: وكانوا
حديثى عهد بالكفر. رواه البخارى (٤) . ووجه الدلالة : أنهم فهموا أن التسمية لا بد منها، وخشوا ألا
تكون وجدت من أولئك، لحدائث إسلامهم، فأمرهم بالاحتياط بالتسمية عند الأكل، لتكون كالعروض عن
المتروكة عند الذبح إن لم تكن وجدت، وأمرهم بإجراء أحكام المسلمين على السداد، والله أعلم.

والمذهب الثانى فى المسألة: أنه لا يشترط التسمية، بل هى مستحبة، فإن تركت عمداً أو نسياناً لم

(١) هو جزء من حديث رواه مسلم (٢ / ٢٧٧) . وكذلك رواه أحمد فى المسند (١٧٧٠٨ ، ١٧٧٠٩) .

(٢) أما حديث عدى بن حاتم فهو فى الصحيحين . وقد مضى مطولاً عند تفسير الآية : (٤) من سورة البقرة . وأما
حديث أبى ثعلبة فليس بهذا اللفظ ، وليس فى الصحيحين ، بل رواه أبو داود (٢٨٥٢) . وقد مضى عند تفسير
الآية : (٤) من سورة البقرة .

(٣) من حديث مضى عند تفسير الآية : (٣) من سورة المائدة .

(٤) مضى عند تفسير الآية : (٤) من سورة المائدة . وهو فى البخارى بنحوه (٤ / ٢٥٢ ، ٩ / ٥٤٦ ، ٥٤٧ فتح) .

تضر . وهذا مذهب الإمام الشافعي وجميع أصحابه، ورواية عن الإمام أحمد. نقلها عنه حنبل. وهو رواية عن الإمام مالك، ونص على ذلك أشهب بن عبد العزيز من أصحابه، وحكى عن ابن عباس، وأبي هريرة، وعطاء بن أبي رباح، والله أعلم . وحمل الشافعي الآية الكريمة: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذَكَّرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفَسْقٌ﴾ على ما ذبح لغير الله، كقوله تعالى: ﴿أُرْسِفُوا أَهْلُ لَغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ [الأنعام: ١١٤٥]. وقال عطاء: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذَكَّرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ قال: ينهى عن ذبائح كانت تذبحها قريش عن الأوثان، وينهى عن ذبائح المحوس، وهذا المسلك الذي طرقه الإمام الشافعي قوى، وقد حاول بعض المتأخرين أن يقويه بأن جمل «الواو» في قوله: ﴿وَإِنَّهُ لَفَسْقٌ﴾ حالية، أى: لا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه فى حال كونه فسقا، ولا يكون فسقا حتى يكون قد أهل به لغير الله! ثم ادعى أن هذا متعين، ولا يجوز أن تكون «الواو» عاطفة. لأنه يلزم منه عطف جملة اسمية خبرية على جملة فعلية طلبية! وهذا ينتقض عليه بقوله: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لِيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَٰئِهِمْ﴾. فإنها عاطفة لا محالة، فإن كانت «الواو» التى ادعى أنها حالية صحيحة على ما قال؛ امتنع عطف هذه عليها، فإن عطف على الطلبية ورد عليه ما أورد على غيره، وإن لم تكن «الواو» حالية، بطل ما قال من أصله، والله أعلم.

المذهب الثالث فى المسألة: أنه إن ترك البسمة على الذبيحة نسياناً لم يضر، وإن تركها عمداً لم تحل. هذا هو المشهور من مذهب الإمام مالك، والإمام أحمد بن حنبل، وبه يقول أبو حنيفة وأصحابه، وإسحاق ابن راهويه. وهو محكى عن على، وابن عباس، وسعيد بن المسيب، وعطاء، وطاوس، والحسن البصرى، وغيرهم. ونقل الإمام أبو الحسن المرغينانى فى كتابه «الهداية» الإجماع قبل الشافعي على تحريم متروك التسمية عمداً، فهذا قال أبو يوسف والمشايخ: لو حكم حاكم بجواز بيعه لم ينفذ لمخالفة الإجماع! وهذا الذى قاله غريب جداً!! وقد تقدم نقل الخلاف عمن قبل الشافعي، والله أعلم. قال ابن جرير: وقد اختلف أهل العلم فى هذه الآية: هل نسخ من حكمها شيء أم لا؟ فقال بعضهم: لم ينسخ منها شيء وهى محكمة فيما عنت به. وعلى هذا قول عامة أهل العلم. وروى عن الحسن البصرى وعكرمة أنهما قالا: قال الله: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِّرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾، وقال: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذَكَّرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفَسْقٌ﴾ فنسخ واستثنى من ذلك فقال: ﴿وَأَطْعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَلٌّ لَكُمْ وَأَطْعَامُكُمْ حَلٌّ لَهُمْ﴾ [المائدة: ٥].

ثم قال ابن جرير: والصواب أنه لا تعارض بين حل طعام أهل الكتاب، وبين تحريم ما لم يذكر اسم الله عليه. وهذا الذى قاله صحيح، من أطلق من السلف النسخ ههنا فإنما أراد التخصيص، والله سبحانه وتعالى أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لِيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَٰئِهِمْ﴾ روى ابن أبى حاتم عن أبى إسحاق قال: قال رجل لابن عمر: إن المختار يزعم أنه يوحى إليه؟ قال: صدق، وتلا هذه الآية: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لِيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَٰئِهِمْ﴾. وروى عن أبى زميل قال: كنت قاعداً عند ابن عباس، وحج المختار بن أبى عبيد، فجاءه رجل فقال: يا ابن عباس، رعم أبو إسحاق أنه أوحى إليه الليلة؟ فقال ابن عباس: صدق!! فنفر وقلت: يقول ابن عباس: صدق!! فقال ابن عباس: هما وحيان، وحى الله، وحى الشيطان، وحى الله إلى محمد ﷺ، وحى الشيطان إلى أوليائه، ثم قرأ: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لِيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَٰئِهِمْ﴾ (١). وقد

(١) خبر أبى زميل عن ابن عباس، رواه الطبرانى أيضا (١٣٨٢٢). و المختار بن أبى عبيد: متين كذاب وقع. قتله مصعب بن الزبير سنة ٦٧ من الهجرة.

تقدم عن عكرمة نحو هذا (١) . وقوله : ﴿لِيُجَادِلُوكُمْ﴾ روى أبو داود عن ابن عباس قال : جاءت اليهود إلى النبي ﷺ فقالوا : نأكل مما قتلنا ولا نأكل مما قتل الله؟ فأنزل الله : ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذَكِّرْ أَسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ . وكذا رواه ابن جرير ، والبخاري ، وهذا فيه نظر من وجوه ثلاثة :

أحدها : أن اليهود لا يرون إباحة الميتة حتى يجادلوا .

الثاني : أن الآية من الأنعام ، وهي مكية .

الثالث : أن هذا الحديث رواه الترمذي بلفظ : أتى ناسٌ النبي ﷺ فذكره وقال : حسن غريب ،

وروى عن سعيد بن جبير مرسلًا .

وروى الطبراني عن ابن عباس قال : لما نزلت : ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذَكِّرْ أَسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ أرسلت فارس إلى قريش : أن خاصموا محمدًا وقولوا له : فَمَا تَذْبِحُ أَنْتَ بِيَدِكَ بِسَكِينٍ فَهُوَ حَلَالٌ ، وما ذبح الله ، عز وجل ، بشمشير من ذهب - يعنى الميتة - فهو حرام !؟ فنزلت هذه الآية : ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لِيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾ قال : وإن الشياطين من فارس ، وأولياؤهم قريش (٣) . وروى أبو داود عن ابن عباس فى قوله : ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لِيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَآئِهِمْ﴾ يقولون : ما ذبح الله فلا تأكلوه . وما ذبحتم أنتم فكلوه ! فأنزل الله : ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذَكِّرْ أَسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ . ورواه ابن ماجه وابن أبى حاتم وإسناده صحيح . ورواه ابن جرير من طرق متعددة ، عن ابن عباس ، وليس فيه ذكر اليهود ، فهذا هو المحفوظ ، والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ أى : حيث عدلتهم عن أمر الله لكم وشرعه إلى قول غيره ، فقدتم عليه غيره ، فهذا هو الشرك ، كما قال تعالى : ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ الآية [التوبة : ٣١] . وقد روى الترمذي فى تفسيرها ، عن عدى بن حاتم أنه قال : يا رسول الله ، ما عبدوهم ، فقال : «بل إنهم أحلوا لهم الحرام وحرموا عليهم الحلال ، فاتبعوهم ، فذلك عبادتهم إياهم» .

﴿أَوْ مِنْ كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُجِرَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَحْمَلُونَ﴾

هذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمن الذى كان ميتًا ، أى : فى الضلالة ، هالكًا حائرًا ، فأحياه الله ، أى : أحيا قلبه بالإيمان ، وهده له ووفقه لاتباع رسله ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ ﴾ أى : يهتدى كيف يسلك ، وكيف يتصرف به . والنور هو : القرآن ، كما قال ابن عباس . وقال السدى : الإسلام . والكلل صحيح . ﴿ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ ﴾ أى : الجهالات والأهواء والضلالات المتفرقة ﴿ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا ﴾ أى : لا يهتدى إلى منفذ ، ولا مخلص مما هو فيه ، وفى مسند الإمام أحمد عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن الله خلق خلقه فى ظلمة ثم رش عليهم من نوره فمن أصابه ذلك النور اهتدى ومن أخطأه

(١) مضى عند تفسير الآيتين : (١١٣ ، ١١٤) من سورة الأنعام .

(٢) الطبرى (١٣٨٥) . وتتمة التخرىج فيه (١٢ / ٥٨٥ ، ٥٨٦) .

(٣) إسناده عند الطبراني إسناده صحيح . وكذلك رواه الطبرى (١٣٨٠٥) من هذا الوجه ، وفيه : « بشمشار » . وكتب هنا بهامش المخطوطة العتيقة : « فى تفسير ابن جرير : بشمشار من ذهب » وتحتها علامة أنها حاشية « والشمشير : السكين ، بالفارسية » .

ضل^(١) . كما قال تعالى : ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٧] . قال تعالى : ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الملك: ٢٢] ، وقال تعالى : ﴿مِثْلَ الْقَرِيظِينَ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصْمِ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [هود: ٢٤] ، وقال تعالى : ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ . وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ . وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ . وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَن فِي الْقُبُورِ . إِنَّ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ١٩-٢٣] . والآيات في هذا كثيرة ، ووجه المناسبة في ضرب المثيلين ههنا بالنور والظلمات ، لما تقدم في أول السورة : ﴿وجعل الظلمات والنور﴾ [الانعام: ١] . وزعم بعضهم أن المراد بهذا المثل رجلان معينان ، والصحيح أن الآية عامة ، يدخل فيها كل مؤمن وكافر .

وقوله تعالى : ﴿كَذَلِكَ زَيْنٌ لِّلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أى : حسن لهم ما كانوا فيه من الجهالة والضلالة ، قدرا من الله وحكمة بالغة ، لا إله إلا هو .

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْثَرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْلِكُوا فِيهَا وَمَا يَمْلِكُونَ إِلَّا إِنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [١٢٣] وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ لِّمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾ [١٢٤]

يقول تعالى : وكما جعلنا في قريتك - يا محمد - أكبر من المجرمين ، ورؤوساً ودعاة إلى الكفر والصد عن سبيل الله ، وإلى مخالفتك وعداوتك ، كذلك كانت الرسل من قبلك يبتلون بذلك ، ثم تكون لهم العاقبة ، كما قال تعالى : ﴿وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من المجرمين وكفى بربك هادياً ونصيراً﴾ [الفرقان: ٣١] ، وقال تعالى : ﴿وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً﴾ [الإسراء: ١٦] ، قيل : معناه : أمرناهم بالطاعات ، فخالفوا ، فدمرناهم . وقيل : أمرناهم أمراً قدرياً ، كما قال ههنا : ﴿ليمكروا فيها﴾ . قال ابن عباس : ﴿أكابر مجرميها﴾ قال : سلطنا شرارها فقصوا فيها ، فإذا فعلوا ذلك أهلكتناهم بالعذاب . وقال مجاهد وقتادة : ﴿أكابر مجرميها﴾ قال : عظامواها . قلت : وهذا كقوله تعالى : ﴿وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون . وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعدنين﴾ [سبا: ٣٤ ، ٣٥] ، وقال تعالى : ﴿وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون﴾ [الزخرف: ٢٣] .

والمراد بالمرك ههنا دعاؤهم إلى الضلالة بزخرف من المقال والفعال ، كما قال تعالى إخباراً عن قوم نوح : ﴿ومكروا مكراً كيثاً﴾ [نوح: ٢٢] ، وقال تعالى : ﴿ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنهم لكنا مؤمنين . قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صدقناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كتمم مجرمين . وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمرونا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا هل يجزون إلا ما كانوا يعملون﴾ [سبا: ٣١-٣٣] .

(١) هو جزء من حديث طويل ، في المسند (٦٦٤٤) بإسناد صحيح من حديث عبد الله بن عمرو . وفي لفظه : « ثم ألقى عليهم من نوره يومئذ » . ورواه مرة أخرى من المراجع التي أشرنا إليها في التخرير في الموضوعين كلمة « رش » ! والظاهر أن الحافظ ابن كثير ذكره بالمعنى من حفظه .

وقوله : ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أى : وما يعود وبال مكربهم ذلك وإضلالهم من أضلوه إلا على أنفسهم ، كما قال تعالى : ﴿لِيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [المنكوت : ١٣] ، وقال : ﴿وَمَنْ أَوْزَارَ الَّذِينَ يَضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ﴾ [النحل : ٢٥] .

وقوله : ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾ أى : إذا جاءتهم آية وبرهان وحجة قاطعة ، قالوا : ﴿لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾ أى : حتى تأتينا الملائكة من الله بالرسالة ، كما تأتى إلى الرسل ، كقوله ، جل وعلا : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ [الفرقان : ٢١] .

وقوله : ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَاتِهِ﴾ أى : هو أعلم حيث يضع رسالته ومن يصلح لها من خلقه ، كما قال تعالى : ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقُرَيْتَيْنِ عَظِيمٍ . أَمْ هُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ الآية [الزخرف : ٣١ ، ٣٢] يعنون : لولا نزل هذا القرآن على رجل عظيم كبير مبعجل فى أعينهم ﴿مِنَ الْقُرَيْتَيْنِ﴾ أى : مكة والطائف . وذلك لأنهم - قبحهم الله - كانوا يزدرون بالرسول ، صلوات الله وسلامه عليه ، بغياً وحسداً ، وعناداً واستكباراً ، كما قال تعالى مخبراً عنهم : ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهْدَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ يَذُكُرُ الرَّحْمَنَ هُمْ كَافِرُونَ﴾ [الانبيا : ٣٦] ، وقال تعالى : ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهْدَا الَّذِي يَبْعَثُ اللَّهُ رَسُولًا﴾ [الفرقان : ٤١] ، وقال تعالى : ﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَىٰ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَخَافَ بِاللَّذِينَ سَخَّرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأنعام : ١٠] . هذا ، وهم معترفون بفضله وشرفه ونسبه ، وطهارة بيته ومرابه ومنشئه ، حتى إنهم إنما كانوا يسمونه بينهم قبل أن يوحى إليه : «الأمين» ، وقد اعترف بذلك رئيس الكفار «أبو سفيان» حين سأله «هرقل» ملك الروم : كيف نسبه فيكم؟ قال : هو فينا ذو نسب . قال : هل كنتم تهتمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال : لا ، الحديث بطوله الذى استدل به ملك الروم بطهارة صفاته ، عليه السلام ، على صدقه ونبوته وصحة ما جاء به .

وروى الإمام أحمد عن وائلة بن الأسقع أن رسول الله ﷺ قال : «إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل ، واصطفى من بنى إسماعيل بنى كنانة ، واصطفى من بنى كنانة قريشا ، واصطفى من قريش بنى هاشم ، واصطفاني من بنى هاشم » . انفراد بإخراجه مسلم نحوه (١) . وفى صحيح البخارى ، عن أبى هريرة ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : «بُعِثْتُ مِنْ خَيْرِ قُرُونِ بَنَى آدَمَ قَرْنًا فَرْتَنَا ، حَتَّى بَعِثْتُ مِنَ الْقُرُونِ الَّذِي كُنْتُ فِيهِ» (٢) . وروى الإمام أحمد عن المطلب بن أبى وداعة قال : قال العباس : بلغه ﷺ بعض ما يقول الناس ، فصعد المنبر فقال : «من أنا؟» . قالوا : أنت رسول الله . فقال : «أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ، إن الله خلق الخلق فجعلنى فى خير خلقه ، وجعلهم فريقيين ، فجعلنى فى خير فرقة ، وخلق القبائل فجعلنى فى خير قبيلة . وجعلهم بيوتا فجعلنى فى خيرهم بيتاً ، فأنا خيركم بيتاً وخيركم نفساً» (٣) . صدق صلوات الله وسلامه عليه . وفى الحديث أيضا المروى عن عائشة ، قالت : قال رسول الله ﷺ : «قال لى جيريل : قلبت الأرض مشارقها ومغاربها فلم أجد رجلاً أفضل من محمد ، وقلبت الأرض مشارقها ومغاربها فلم أجد بنى أب أفضل من

(١) المسند (١٧٠٥٤) ومسلم (٢/ ٢٠٣ بولاق) . (٢) البخارى (٦ / ٤١٨ فتح) .

(٣) المسند (١٧٨٨) . وإسناده صحيح . ورواه الترمذى (٤ / ٢٩٢ ، ٢٩٣) .

بنى هاشم». رواه الحاكم والبيهقي (١).

وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود قال: إن الله نظر في قلوب العباد، فوجد قلب محمد ﷺ خير قلوب العباد، فاصطفاه لنفسه، فابتعثه برسالته. ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد ﷺ، فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد، فجعلهم وزراء نبيه، يقاتلون على دينه، فما رأى المسلمون حسناً فهو عند الله حسن، وما رآه المسلمون سيئاً فهو عند الله سيئ (٢). وروى ابن أبي حاتم عن ابن أبي حسين قال: أبصر رجل ابن عباس وهو داخل من باب المسجد، فلما نظر إليه راعه، فقال: من هذا؟ قالوا: ابن عباس ابن عم رسول الله ﷺ. فقال: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿سَيَصِيبُ الَّذِينَ آجَرُوا صَغَارَ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾ هذا وعيد شديد من الله وتهديد أكيد، لمن تكبر عن اتباع رسله والانقياد لهم فيما جاؤوا به، فإنه سيصيبه يوم القيامة بين يدي الله ﴿صَغَارَ﴾ وهو الذلة الدائمة، كما أنهم استكبروا أعقبهم ذلك ذلاً كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]. أى: صاغرين ذليلين حقيرين. وقوله: ﴿وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾ لما كان المكر غالباً إنما يكون خفياً، وهو التلطف فى التحيل والخديعة، قوبلوا بالعذاب الشديد جزاء وفاقا ﴿وَلَا يَظَلُمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْلَى السَّرَائِرُ﴾ [الطارق: ٩] أى: تظهر المستورات والمكنونات والضمائر. وجاء فى الصحيحين، عن رسول الله ﷺ: أنه قال: «يُنْصَبُ لكل غادر لواء عند استه يوم القيامة، فيقال: هذه غدرة فلان ابن فلان» (٣). والحكمة فى هذا: أنه لما كان الغدر خفياً لا يطلع عليه الناس، فيوم القيامة يصير علماً منشوراً على صاحبه بما فعل.

﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَقُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾

يقول تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ أى: يسره له وينشطه ويسهله لذلك، فهذه علامات على الخير، كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبِهِمْ مِنْ ذَكَرِ اللَّهُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الزمر: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبِيبٌ إِلَيْكُمْ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ [الحجرات: ٧]. قال ابن عباس: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ يقول: يوسع قلبه للتوحيد والإيمان به، وكذا قال غير واحد. وهو ظاهر.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ قرئ بفتح الضاد وتسكين الياء، والاكثرون: ﴿ضَيِّقًا﴾ بتشديد الياء وكسرها، وهما لغتان: كَهَيْنَ وهَيْنَ. وقرأ بعضهم: ﴿حَرَجًا﴾ بفتح الحاء وكسر الراء، قيل: بمعنى أثم. قاله السدى. وقيل: بمعنى القراءة الأخرى ﴿حَرَجًا﴾ بفتح الحاء والراء.

(١) إطلاقه النسبة إلى الحاكم يوهم أنه فى المستدرك، ولم أجده فيه. ونسبه السيوطى فى الجامع الصغير للحاكم فى الكنى وابن عسكار. وليس بين يدي إسناده حتى أعرف درجته. وذكره الهيثمى فى الزوائد (٢١٧/٨) وقال: «رواه الطبرانى فى الأوسط، وفيه موسى بن عبيدة الربذى، وهو ضعيف». ونقل النوارى فى شرح الجامع الصغير أنه رواه أحمد فى المنائب والطبرانى والبيهقى وغيرهم، وقال: «قال ابن حجر فى أماليه: لوائح الصحة ظاهرة على صفحات هذا المتن! وما هذا بقول يتبل فى تصحيح حديث، وما هو من باب كلام أهل العلم بالحديث.

(٢) المسند (٣٦٠٠). وإسناده صحيح.

(٣) هو فى المسند (٤٦٤٨) بنحوه من حديث ابن عمر. وانظر البخارى (١٣/٦٠، ٦١ فتح) وصحيح مسلم (٤٧/٢).

وهو الذى لا يتسع لشيء من الهدى، ولا يخلص إليه شيء ما ينفعه من الإيمان ولا ينفذ فيه. وقد سال عمر بن الخطاب رجلا من الأعراب من أهل البادية من مدليج: ما الحرجة؟ فقال: هي الشجرة تكون بين الأشجار لا تصل إليها راعية، ولا وحشية، ولا شيء. فقال عمر: كذلك قلب المنافق، لا يصل إليه شيء من الخير. وقال ابن جرير: ﴿صَبَقًا حَرْجًا﴾ بلا إله إلا الله، حتى لا يستطيع أن يدخله، كأنما يصعد في السماء من شدة ذلك عليه. وقال عطاء الخراساني: ﴿كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ﴾ ويقول: مثله كمثل الذى لا يستطيع أن يصعد إلى السماء. وقال ابن عباس: ﴿كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ﴾ ويقول: فكما لا يستطيع ابن آدم أن يبلغ السماء، فكذلك لا يقدر أن يدخل التوحيد والإيمان قلبه، حتى يدخله الله قلبه.

وقال ابن جرير: وهذا مثل ضربه الله لقلب هذا الكافر فى شدة تضييقه إياه عن دخول الإيمان إليه. يقول: فمثلته فى امتناعه من قبول الإيمان وضيقة عن وصوله إليه، مثل امتناعه من الصعود إلى السماء وعجزه عنه؛ لأنه ليس فى وسعه وطاقته. وقال فى قوله: ﴿كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ يقول: كما يجعل الله صدر من أراد ضلاله ضيقا حرجا، كذلك يسلط الله الشيطان عليه وعلى أمثاله ممن أبى الإيمان بالله ورسوله، فيغويه ويصده عن سبيل الله. وقال ابن عباس: الرجس: الشيطان. وقال مجاهد: الرجس: كل ما لا خير فيه. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: الرجس: العذاب.

﴿وَهَذَا صِرَاطٌ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا فَذُكِّرْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَكِّرُونَ أَبْنَاءَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَيُؤْتِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

ربع

لما ذكر تعالى طريق الضالين عن سبيله، الصادين عنها - نبه على شرف ما أرسل به رسوله من الهدى ودين الحق، فقال: ﴿وَهَذَا صِرَاطٌ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا﴾ منصوب على الحال، أى: هذا الدين الذى شرعناه لك يا محمد بما أوحينا إليك هذا القرآن هو صراط الله المستقيم، كما تقدم فى حديث الحارث، عن على فى نعت القرآن: «هو صراط الله المستقيم، وحبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم». رواه أحمد والترمذى بطوله. ﴿فَدُكِّرْنَا الْآيَاتِ﴾ أى: وضحناها وبينناها وفسرناها ﴿لِقَوْمٍ يَذَكِّرُونَ﴾ أى: لمن له فهم ووعى يعقل عن الله ورسوله. ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ﴾ وهى: الجنة، ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أى: يوم القيامة. وإنما وصف الله الجنة ههنا بدار السلام، لسلامتهم فيما سلكوه من الصراط المستقيم، المقتضى أثر الأنبياء وطرائقهم، فكما سلموا من آفات الأعوجاج أفصوا إلى دار السلام. ﴿وَهُوَ وَلِيُّهُمْ﴾ أى: حافظهم وناصرهم ومؤيدهم ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أى: جزاء على أعمالهم الصالحة تولاهم وأثابهم الجنة، بمنه وكرمه.

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا لِمَعْشَرِ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْبَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمِعْ بَعْضَنَا بَعْضًا وَبَعْضًا أَجَلْنَا إِلَى الْآيَةِ أَطَلَّتْ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَلِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾

يقول تعالى: واذكر يا محمد فيما تفصه عليهم وتذكرهم به ﴿يَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا﴾ يعنى: الجن وأولياءهم، الذين كانوا يعبدونهم فى الدنيا، ويعوذون بهم ويطيعونهم، ويوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْبَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ﴾ أى: ثم يقول: يا معشر الجن. وميثاق الكلام يدل على المحذوف.

ومعنى قوله: ﴿قَدْ اسْتَكْرَثْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ﴾ أى: من إضلالهم وإغوائهم، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ. وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ. وَلَقَدْ أَضَلُّ مِنْكُمْ جِبَلًا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [يس: ٦٠ - ٦٢]. وقال ابن عباس: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدْ اسْتَكْرَثْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ﴾ يعنى: أضللتهم منهم كثيرا. وكذلك قال مجاهد، والحسن، وقناة.

﴿وَقَالَ أَوْلِيَائُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ يعنى: أن أولياء الجن من الإنس قالوا مجيبين لله تعالى عن ذلك بهذا. وقال ابن جرير: كان الرجل فى الجاهلية ينزل الأرض، فيقول: أعوذ بكبير هذا الوادى! فذلك استمتماعهم، فاعتذروا يوم القيامة. وأما استمتماع الجن بالإنس فإنه كان - فيما ذكر - ما ينال الجن من الإنس من تعظيمهم إياهم فى استعانتهم بهم، فيقولون: قد سدنا الإنس والجن. ﴿وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتُمْ لَنَا﴾ قال السدى: أى الموت ﴿قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ﴾ أى: مأواكم ومنزلكم أنتم وأولياؤكم ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أى: ما كثرين فيها مكانًا مخلدًا ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾. قال بعضهم: يرجع معنى هذا الاستثناء إلى البرزخ. وقال بعضهم: هذا رد إلى مدة الدنيا. وقيل غير ذلك من الأقوال التى سيأتى تقريرها عند قوله تعالى فى سورة هود: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ [الآية: ١٠٧]. وقد روى ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: ﴿النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ قال: إن هذه الآية آية لا ينبغي لأحد أن يحكم على الله فى خلقه، لا ينزلهم جنة ولا نارًا.

﴿كَذَلِكَ نُؤَيُّ بِعَظْمِ الظَّالِمِينَ مَعْصًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾

قال سعيد، عن قناة فى تفسيرها: إنما يولى الله بين الناس بأعمالهم، فالؤمن ولى المؤمن وأين كان وحيث كان، والكافر ولى الكافر أينما كان وحيثما كان، ليس الإيمان بالتمنى ولا بالتحلى. واختار هذا القول ابن جرير. وقال قناة فى تفسيرها: يولى الله بعض الظالمين بعضا فى النار، يتبع بعضهم بعضا. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى قوله: ﴿كَذَلِكَ نُؤَيُّ بِعَظْمِ الظَّالِمِينَ مَعْصًا﴾ قال: ظالمى الجن وظالمى الإنس، وقرأ: ﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نَقِصْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦]، قال: ونسلط ظلمة الجن على ظلمة الإنس.

ومعنى الآية الكريمة: كما ولينا هؤلاء الخاسرين من الإنس تلك الطائفة التى أغوتهم من الجن، كذلك نفعل بالظالمين، نسلط بعضهم على بعض، ونهلك بعضهم ببعض، وننتقم من بعضهم ببعض، جزاء على ظلمهم وبغيهم.

﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُصَدِّقُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا. قَالُوا أَشْهَدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَعَدَّاهُمْ لَعْنَةُ اللَّهِ لَأُولَئِكَ عَشِيرَتُ الْكَافِرِينَ﴾

وهذا أيضا مما يُقرع الله - سبحانه وتعالى - به كافرى الجن والإنس يوم القيامة، حيث يسألهم - وهو أعلم: هل بلغتهم الرسل رسالاته؟ وهذا استفهامٌ تقريرى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ﴾ أى: من جملتكم. والرسل من الإنس فقط، وليس من الجن رسل، كما نص على ذلك مجاهد، وابن جرير، وغير واحد من الأئمة، من السلف والخلف. وقال ابن عباس: الرسل من بنى آدم، ومن الجن تُدر. وحكى ابن جرير عن الضحاك بن مزاحم: أنه زعم أن فى الجن رسلا، واحتج بهذه الآية

الكريمة وفيه نظر؛ لأنها محتملة وليست بصريحة، وهي - والله أعلم - كقوله: ﴿هَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾ أي: المالح والحلو ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ﴾ إلى أن قال: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ١٩- ٢٢]، ومعلوم أن اللؤلؤ والمرجان إنما يستخرجان من الملح لا من الحلو. وهذا واضح، والله الحمد. وقد نص على هذا الجواب بعينه ابن جرير .

والدليل على أن الرسل إنما هم من الإنس قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ إلى قوله: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٣ - ١٦٥] ، وقال تعالى عن إبراهيم: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [التكوير: ٢٧]، فحصر النبوة والكتاب بعد إبراهيم في ذريته، ولم يقل أحد من الناس: إن النبوة كانت في الجن قبل إبراهيم الخليل ، ثم انقطعت عنهم ببعثته. وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠]، وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ [يوسف: ٩٠]، ومعلوم أن الجن تبع للإنس في هذا الباب ؛ ولهذا قال تعالى إخباراً عنهم: ﴿وَإِذْ صَرَّفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ . قَالُوا يَا قَوْمِمْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْبِئَانِ اللَّهِ وَإِنَّا لَمُصَدِّقَاتُ لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ . يَا قَوْمِمْ أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ . وَمَنْ لَا يَجِبِ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الاحقاف: ٢٩-٣٢] . وقد جاء في الحديث - الذي رواه الترمذى وغيره - أن رسول الله ﷺ تلا عليهم سورة الرحمن، وفيها قوله تعالى: ﴿سَقَرَعُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ . فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الآيتان: ٣١ ، ٣٢] (١) .

وقال تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا﴾ أي: أقرنا أن الرسل قد بلغونا رسالاتك، وأنذرونا لقاءك، وأن هذا اليوم كائن لا محالة. قال تعالى: ﴿وَعَرَّضْتَهُمُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أي: وقد فرطوا في حياتهم الدنيا، وهلكوا فيها بتكذيبهم الرسل، ومخالفتهم المعجزات، لما اغتروا به من زخرف الحياة الدنيا وزينتها وشهواتها ﴿وشهدوا على أنفسهم﴾ أي: يوم القيامة ﴿أنهم كانوا كافرين﴾ أي: في الدنيا، بما جاءتهم به الرسل، صلوات الله وسلامه عليهم .

﴿ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٣١] .
﴿ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٢] .

يقول تعالى: ﴿ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾ أي: إنما أعدنا إلى الثقلين بإرسال الرسل وإنزال الكتب، لئلا يعاقب أحداً بظلمه، وهو لم تبلغه دعوة، ولكن أعدنا إلى الأمم، وما عذبنا أحداً إلا بعد إرسال الرسل إليهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤] .

(١) الترمذى (٤/ ١٩١، ١٩٢) من حديث جابر، قال: «خرج رسول الله ﷺ على أصحابه، فقرأ عليهم سورة الرحمن من أولها إلى آخرها، فسكتوا، فقال: «لقد قرأتها على الجن ليلة الجن، فكانوا أحسن مردوداً منكم، كنت كلما أتيت على قوله ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ - قالوا: لا بشئ، من نعمك ربنا نكذب، فلك الحمد». قال الترمذى: «هذا حديث غريب». - ورواه الحاكم (٤ / ٤٧٣) وقال: «صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه». - ووافقه الذهبي .

وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل : ١٣٦] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء : ١٥] ، وقال تعالى : ﴿ كُلَّمَا أَلْقَىٰ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا ﴾ [الملك : ٨ ، ١٩] والآيات في هذا كثيرة . قال الإمام أبو جعفر بن جرير : ويحتمل قوله تعالى : ﴿ يَظْلِمُ ﴾ وجهين :

أحدهما : ذلك من أجل أن ربك لم يكن ليهلك القرى يظلم أهلها بالشرك ونحوه ، وهم غافلون ، يقول : لم يكن يعاجلهم بالعقوبة حتى يبعث إليهم رسولاً ينههم على حجج الله عليهم ، وينذرهم عذاب الله يوم معادهم ، ولم يكن بالذي يؤاخذهم غفلة فيقولوا : ﴿ مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ﴾ [المائدة : ١٩] .

والوجه الثاني : ﴿ ذَلِكَ أَن لَّمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكُ الْقُرَىٰ يَظْلِمُ ﴾ يقول : لم يكن ليهلكهم دون التنبيه والتذكير بالرسول والآيات والعبر ، فيظلمهم بذلك ، والله غير ظلام لعبيده . ثم شرع يرجح الوجه الأول ، ولا شك أنه أقوى ، والله أعلم .

وقال : وقوله : ﴿ وَلكُلِّ دَرَجَاتٍ مِّمَّا عَمِلُوا ﴾ أي : ولكل عامل من طاعة الله أو معصيته منازل ومراتب من عمله يبلغه الله إياها ، ويثيبه بها ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر . قلت : ويحتمل أن يعود قوله : ﴿ وَلكُلِّ دَرَجَاتٍ مِّمَّا عَمِلُوا ﴾ أي : من كافرى الجن والإنس ، أي : ولكل درجة في النار بحسبه ، كقوله : ﴿ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ ﴾ [الأعراف : ٢٣٨] ، وقوله : ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴾ [النحل : ٨٨] . ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ قال ابن جرير : أي وكل ذلك من عملهم ، يا محمد ، بعلم من ربك ، يحصيها ويثيبها لهم عنده ، ليجازيهم عليها عند لقائهم إياه ومعادهم إليه .

﴿ وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَاءْ يُدْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنشَأَكُم مِّنْ ذُرِّيَّتِهِ قَوْمًا آخَرِينَ ﴾ [آت مَا تَوْعَدُونَ لَأْتِ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿١١٤٣﴾ قُلْ يَقُولُوا عَلَىٰ مَكَاتِبِكُمْ إِنِّي عَنَّا فُتُوهُ فَتَمَنَّوْا مِنَ تَكْوِينِ لَهٗ عَقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿١١٤٤﴾

يقول تعالى : ﴿ وَرَبُّكَ ﴾ يا محمد ﴿ الْغَنِيُّ ﴾ أي : عن جميع خلقه من جميع الوجوه ، وهم الفقراء إليه في جميع أحوالهم ، ﴿ ذُو الرَّحْمَةِ ﴾ أي : وهو مع ذلك رحيم بهم ، كما قال تعالى : ﴿ إِنْ اللَّهُ بِالنَّاسِ لَرُءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة : ١٤٣] . ﴿ إِنْ يَشَاءْ يُدْهِبْكُمْ ﴾ أي : إذا خالفتم أمره ﴿ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ ﴾ أي : قوما آخرين ، أي : يعملون بطاعته ﴿ كَمَا أَنشَأَكُم مِّنْ ذُرِّيَّةٍ قَوْمٍ آخَرِينَ ﴾ أي : هو قادر على ذلك ، سهل عليه ، يسير لديه ، كما أذهب القرون الأول وأتى بالذي بعده ، كذلك هو قادر على إذهاب هؤلاء والإتيان بآخرين ، كما قال تعالى : ﴿ إِنْ يَشَاءْ يُدْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ آخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَلِكَ قَدِيرًا ﴾ [النساء : ١٣٣] ، وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ . إِنْ يَشَاءْ يُدْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ . وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ [فاطر : ١٥ - ١٧] ، وقال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالِكُمْ ﴾ [محمد : ١٣٨] . وروى ابن إسحاق ، عن أبان بن عثمان قال : الذرية : الأصل ، والذرية : النسل . وقوله تعالى : ﴿ إِنْ مَا تَوْعَدُونَ لَأْتِ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ أي : أخبرهم يا محمد أن الذي توعدون به من أمر المعاد كائن لا محالة ﴿ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ أي : لا تعجزون الله ، بل هو قادر على إعادتكم ، وإن صرتم تراباً ورفأاً وعظاماً ، هو قادر لا يعجزه شيء .

ثم لما قسموا فيما زعموا لم يحفظوا القسمة ، بل جاروا فيها ، كما قال تعالى : ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتَ سَبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ [النحل : ٥٧] ، وقال تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ ﴾ [الزخرف : ١٥] ، وقال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَكُنْ الذَّكْرُ وَهِيَ الْأُنثَى تِلْكَ إِذَا قَسَمَ ضُرَيْقٌ ﴾ [النجم : ٢١ ، ٢٢] .

﴿ وَكَذَلِكَ زَيْنٌ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادَهُمْ شُرَكَاءَهُمْ لِيُرْذُوهُمْ وَيَلْبَسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرَهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ .

يقول تعالى : وكما زينت الشياطين لهؤلاء أن يجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا ، كذلك زينوا لهم قتل أولادهم خشية الإملاق ، ووآد البنات خشية العار . قال ابن عباس : زينوا قتل أولادهم . وقال مجاهد : ﴿ شُرَكَاءُهُمْ ﴾ : شياطينهم ، يأمرونهم أن يذروا أولادهم خشية العيلة . وقال السدي : أمرتهم الشياطين أن يقتلوا البنات . وأما ﴿ لِيُرْذُوهُمْ ﴾ فيهلكوهم ، وأما ﴿ لِيَلْبَسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ﴾ أى : فيخلطوا عليهم دينهم . ونحو ذلك قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وقتادة . وهذا كقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ . يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [النحل : ٥٨ ، ٥٩] ، وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴾ [التكوير : ٨ ، ٩] . وقد كانوا أيضا يقتلون الأولاد من الإملاق ، وهو : الفقر ، أو خشية الإملاق أن يحصل لهم فى ثانی الحال ، وقد نهاهم عن قتل أولادهم لذلك ، وإنما كان هذا كله من شرع الشيطان وترينه لهم ذلك .

قال الله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ﴾ أى : كل هذا واقع بمشيئته تعالى وإرادته واختياره لذلك كونه ، وله الحكمة التامة فى ذلك ، فلا يسأل عما يفعل وهم يسألون . ﴿ فَذَرَهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ أى : فدعهم واجتنبهم وما هم فيه ، فيحكم الله بينك وبينهم .

﴿ وَقَالُوا هَذِهِ الْأَعْمَاءُ وَحَرَّتْ جِجْرُهُنَّ لَا يَطْعَمُهُنَّ إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِرَعْمِهِمْ وَأَنْعَمَ حُرِّمَتْ ظُهُورُهُنَّ وَأَنْعَمَ لَا يُذَكَّرُونَ أَسْرَأَ اللَّهُ عَيْنَهُمَا فَمِيزَ آفِيئَةً بَيْنَهُمَا فَجَبَّرَ بِهِمَا بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ .

قال ابن عباس : «الجِجْرُ» : الحرام ، مما حرموا الوصيلة ، وتحريم ما حرموا . وكذلك قال مجاهد ، وقتادة ، وغيرهما . وقال السدي : ﴿ لَا يَطْعَمُهُنَّ إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِرَعْمِهِمْ ﴾ يقولون : حرام أن نطعم إلا من شئنا .

وهذه الآية الكريمة كقوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ اللَّهُ أَدْنَى لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴾ [يونس : ١٥٩] ، وكقوله تعالى : ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَآكَرَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [المائدة : ١٠٣] . وقال مجاهد : كان من إيلهم طائفة لا يذكرون اسم الله عليها ولا فى شئ من شأنها ، لا إن ركبوا ، ولا إن حلبوا ، ولا إن حملوا ، ولا إن تتجوا ، ولا إن عملوا شيئا . ﴿ أَفَرَأَى عَلَيْهِ ﴾ أى : على الله ، وكذبا منهم فى إسنادهم ذلك إلى دين الله وشرعته ؛ فإنه لم يأذن لهم فى ذلك ولا رصيه منهم ، ﴿ سَجَّزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ أى : عليه ، وُسُنَدُونَ إليه .

﴿ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَمُحَرَّمٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَإِنْ كَانَ مِنَ مَيْتَةٍ فَهُمْ بِهَا شُرَكَاءُ سِجِّزِيهِمْ وَصَفَّهِمْ إِنَّهُمْ كَافِرِينَ ﴾ .

قال ابن عباس : ﴿ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ قال : اللبن ، كانوا يحرمونه على

إنانهم، ويشربه ذكراهم. وكانت الشاة إذا ولدت ذكراً ذبحوه، وكان للرجال دون النساء. وإن كانت أنثى تركت فلم تذبح، وإن كانت ميتة فهم فيه شركاء. فهى الله عن ذلك. وقال مجاهد وقادة فى قوله: ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفِهِمْ﴾ أى: قولهم الكذب فى ذلك، يعنى كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا نَصَفُ الْأَسْتَكْمُ الْكُذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لَقَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَقْفَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ لَا يَفْلِحُونَ﴾ الآية [التحل: ١١٦]، ١١٧. ﴿إِنَّهُ حَكِيمٌ﴾ أى: فى أفعاله وأقواله وشرعه وقدره ﴿عَلِيمٌ﴾ بأعمال عباده من خير وشر، وسيجزئهم على ذلك أتم الجزاء.

﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ أُفْرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾

يقول تعالى: قد خسر الذين صنعوا هذه الأفاعيل فى الدنيا والآخرة، أما فى الدنيا فخسروا أولادهم بقتلهم، وضيقوا عليهم فى أموالهم، فحرموا أشياء ابتدعوها من تلقاء أنفسهم، وأما فى الآخرة فيصبرون إلى شر المنازل يكذبهم على الله وافترائهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَقْفَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ لَا يَفْلِحُونَ. مَنَعَ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [يوس: ٦٩، ٧٠]. وروى ابن مردويه عن ابن عباس، قال: إذا سرك أن تعلم جهل العرب فاقرا ما فوق الثلاثين والمائة من سورة الأنعام، ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ أُفْرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾. وهكذا رواه البخارى منفرداً (١).

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوسَاتٍ بِغَيْرِ مَعْرُوسَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكْلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّاتِ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (٢) وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَغَرَضَاتٌ كُلُوا مِن ثَمَرِهَا إِذَا أَثْمَرَ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٣)

يقول تعالى بيانا؛ لأنه الخالق لكل شىء، من الزروع والثمار والأنعام التى تصرف فيها المشركون بأرائهم الفاسدة وقسموها وجزؤوها، فجعلوا منها حراماً وحلالاً، فقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوسَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوسَاتٍ﴾. قال ابن عباس: ﴿مَعْرُوسَاتٍ﴾: ما عرش من الكرم ﴿وَغَيْرَ مَعْرُوسَاتٍ﴾: ما لم يعرش من الكرم. وكذا قال السدى. وقال ابن جرير: ﴿مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾ قال: متشابهها فى المنظر، وغير متشابهة فى الطعام. وقال محمد بن كعب: ﴿كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ﴾ قال: من رطبه وعتبه.

وقوله تعالى: ﴿وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ قال ابن جرير: قال بعضهم: هى الزكاة المفروضة. وروى عن أنس بن مالك قال: ﴿وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ قال: الزكاة المفروضة (٤). وقال ابن عباس: يعنى:

(١) يعنى دون صحيح مسلم. وهو فى البخارى (٦ / ٤٠٦ فتح).

(٢) الطبرى (١٣٩٦٣)، وإسناده صحيح. يزيد بن درهم أبو العلاء العجمى - رواه عن أنس: تابعى ثقة، ترجمه البخارى فى الكبير (٤ / ٢ / ٣٣٠) فلم يذكر فيه جرْحاً. وترجمه ابن أبى حاتم (٤ / ٢ / ٢٦٠) وروى عن عبد الصمد بن عبد الوارث أنه قال: «وكان ثقة». ثم روى عن يحيى بن معين أنه قال: «ليس بشىء». وتلميذه عبد الصمد أعرف به من ابن معين.

الزكاة المفروضة، يوم يُكَال ويعلم كيله. وكذا قال سعيد بن المسيب. وقد روى الإمام أحمد وأبو داود عن جابر بن عبد الله؛ أن النبي ﷺ أمر من كل جاد عشرة أوسق من التمر، بقنو يعلق في المسجد للمساكين، وإسناده جيد قوى (١). وقال طاوس، وأبو الشعثاء، وقادة، والحسن، والضحاك، وابن جريج: هي الزكاة. وقال الحسن البصرى: هي الصدقة من الحب والثمار. وقال آخرون: هو حق آخر سوى الزكاة. وقال مجاهد: عند الزرع يعطى القبضة، وعند الصرام يعطى القبضة، ويتركهم فيتبعون آثار الصرام. وقال سعيد بن جبير: كان هذا قبل الزكاة: للمساكين، القبضة والضغث لعلف دابته. وقال آخرون: هذا كان واجباً، ثم نسخه الله بالعشر أو نصف العشر. حكاه ابن جرير عن ابن عباس، ومحمد بن الحنفية، وإبراهيم النخعي وغيرهم. واختاره ابن جرير. قلت: وفي تسمية هذا نسخاً نظراً؛ لأنه قد كان شيئاً واجباً في الأصل، ثم إنه فصل بيانه وبين مقدار المخرج وكميته. قالوا: وكان هذا في السنة الثانية من الهجرة، فالله أعلم.

وقد ذم الله سبحانه الذين يصرمون ولا يتصدقون، كما ذكر عن أصحاب الجنة في سورة «ن»: ﴿إِذْ أَتَمُّوا لَبِصْرُ مَنَّا مُصْبِحِينَ. وَلَا يَسْتَنُونَ. فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ. فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾ أي: كالليل المدلهم سوداء محترقة ﴿فَتَنَادُوا مُصْبِحِينَ. أَنْ اغْدُوا عَلَيْنَا حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ. فَانظَرَوْا وَهُمْ يَتَخَفَتُونَ. أَنْ لَّا يَدْخُلْنَهَا يَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ. وَغَدُوا عَلَي حَرْدٍ﴾ أي: قوة وجلد وهمة ﴿فَادْرِين. فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُونَ. بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ. قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ. قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ. فَأَقْبَل بَعْضُهُمْ عَلَي بَعْضٍ يَتَلَامُونَ. قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ. عَسَى رَبَّنَا أَن يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ. كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [القلم: ١٧ - ٣٣].

وقوله: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ قيل: معناه: ولا تسرفوا في الإعطاء، فتعطوا فوق المعروف. وقال عطاء: نهوا عن السرف في كل شيء. وقال السدي: لا تعطوا أموالكم، فتتعبدوا فقراء. وقال سعيد بن المسيب ومحمد بن كعب: لا تمنعوا الصدقة فتعصوا. ثم اختار ابن جرير قول عطاء: أنه نهي عن الإسراف في كل شيء. ولا شك أنه صحيح، لكن الظاهر - والله أعلم - من سياق الآية حيث قال تعالى: ﴿كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا﴾ أن يكون عائداً على الأكل، أي: ولا تسرفوا في الأكل؛ لما فيه من مضرة العقل والبدن، كما قال تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١]، وفي صحيح البخاري تعليقاً: «كلوا واشربوا، والبسوا وتصدقوا، في غير إسراف ولا مخيلة» (٢). وهذا من هذا، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرُشٌ﴾ أي: وأنشأ لكم من الأنعام ما هو حمولة وما هو فرش، قيل: المراد بالحمولة ما يحمل عليه من الإبل، والفرش الصغار منها. كما قال عن عبد الله في قوله: ﴿حَمُولَةٌ﴾: ما حمل عليه من الإبل ﴿وَفَرُشٌ﴾ الصغار من الإبل. رواه الحاكم، وقال: صحيح ولم يخرجاه. وقال ابن عباس: الحمولة: الكبار، والفرش الصغار من الإبل. وكذا قال مجاهد. وقال

(١) المسند (١٤٩٢٤) (أبو داود ١٦٦٢). وقوله: «من جاد عشرة أوسق»: الجاد، بالذال المهملة المشددة - بمعنى المجدود، أي: نخلا يبد منه هذا القدر. وهو من «الجداد» بفتح الجيم وتخفيف الدال، وهو قطع ثمر النخل.
(٢) البخاري (١٠ / ٢١٥ فتح). ورواه أحمد في المسند (٦٦٩٥) من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، وسيذكره المؤلف الحافظ مخرجاً عند الآية (٣١) من سورة الأعراف. و«المخيلة» بفتح الميم: الخيلاء.

ابن عباس: ﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرَشَاءٌ﴾: فأما الحمولة فالإبل والخيل والبغال والحمير وكل شيء يحمل عليه، وأما الفرش فالغنم . واختاره ابن جرير ، قال : وأحسبه إنما سمي فرشاً لدنوه من الأرض . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: الحمولة ما تركبون، والفرش ما تأكلون وتحلبون، شاة لا تحمل، تأكلون لحمها وتتخذون من صوفها لحافاً وفرشاً . وهذا الذي قاله عبد الرحمن في تفسير هذه الآية الكريمة حسن ، يشهد له قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ . وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ [يس: ٧١، ٧٢] ، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبِنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾ إلى أن قال: ﴿وَمِنْ أَصْنَافِهَا وَأُوبَارُهَا وَأَشْعَارُهَا أَثَانًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ﴾ [النحل: ٦٩-٨٠] ، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوهَا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ . وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبَلَّغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ . وَيُورِيكُمْ آيَاتِهِ فَآيَ آيَاتِ اللَّهِ تُكْفِرُونَ﴾ [غافر: ٧٩-٨١] .

وقوله تعالى: ﴿كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ أي: من الثمار والزروع والأنعام، فكلها خلقها الله وجعلها رزقاً لكم ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ﴾ أي: طرائقه وأوامره، كما اتبعها المشركون الذين حرموا ما رزقهم الله ، أي: من الثمار والزروع افتراء على الله ﴿إِنَّهُ﴾ أي: إن الشيطان - أيها الناس - ﴿لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ أي: مبين ظاهر العداوة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ١٦] ، وقال تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا﴾ الآية [الاعراف: ٢٧] ، وقال تعالى: ﴿اتَّخِذُوهُ ذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠] . والآيات في هذا كثيرة في القرآن .

﴿لَسَكِنَّةٌ زَوْجٌ مِمَّنِ الْأَنْثِيَّاتِ وَمِمَّنِ الْمَعْرِ أَنتَيْنِ قُلْ مَا ذَكَرْتُمْ حَرَمٌ أَمْ الْأُنثِيَّاتِ أَمْ الْأُنثِيَّاتِ أَمْ الْأُنثِيَّاتِ تَتَوَقَّيْنَ بَعْلَهُنَّ إِنَّ كُنتُمْ سَادِقِينَ﴾ وَمِنَ الْإِبِلِ أَنتَيْنِ وَمِمَّنِ الْمَعْرِ أَنتَيْنِ قُلْ مَا ذَكَرْتُمْ حَرَمٌ أَمْ الْأُنثِيَّاتِ أَمْ الْأُنثِيَّاتِ عَلَيْهِمْ أَنْعَامُ الْأُنثِيَّاتِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّيْتُكُمْ اللَّهُ بِهِذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا يُضِلُّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنْ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾

وهذا بيان لجهل العرب قبل الإسلام فيما كانوا حرموا من الأنعام، وجعلوها أجزاءً وأنواعاً: بحيرة، وسائبة، ووصيلة وحاماً، وغير ذلك من الأنوع التي ابتدعوها في الأنعام والزروع والثمار، فبين أنه تعالى أنشأ جنات معروشات وغير معروشات، وأنه أنشأ من الأنعام حمولة وفرشاً . ثم بين أصناف الأنعام إلى غنم وهو بياض وهو الضأن، وسواد وهو المعز، ذكره وأنثاه، وإلى إبل ذكورها وإنثائها، وبقر كذلك . وأنه تعالى لم يحرم شيئاً من ذلك ولا شيئاً من أولادها، بل كلها مخلوقة لبني آدم، أكلا، وركوباً، وحمولة، وحلباً، وغير ذلك من وجوه المنافع، كما قال: ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ الآية [الزمر: ٦] .

وقوله: ﴿أَمَّا اسْتَمَلَّتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثِيَّاتِ﴾ رَدَّ عَلَيْهِمْ فِي قَوْلِهِمْ: ﴿مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لَذُكُورِنَا وَمُحْرَمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا﴾ . وقوله: ﴿يَبْئُوتُنِي بَعْلُهُمْ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي: أخبروني عن يقين: كيف حرم الله عليكم ما رزعتهم تحريمه من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ونحو ذلك؟ وقوله: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّيْتُكُمْ اللَّهُ بِهِذَا﴾: تهكم بهم فيما ابتدعوه وافتروه على الله، من تحريم ما حرمه من ذلك ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا يُضِلُّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي: لا أحد أظلم منه ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ . وأول من دخل في

هذه الآية: عمرو بن لُحَيٍّ بن قَمَعَةَ، فإنه أول من سَبَّ السَّوَابِ، ووصل الوصيلة، وحمى الحام، كما ثبت ذلك في الصحيح^(١).

﴿قُلْ لَا أُجِدُ فِي مَا أُوْحِي إِلَيَّ مُحْرَمًا عَلَى طَائِعِي بِطَعْمِهِ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ جَائِرٍ فَإِنَّهُ رَجَسٌ أَوْ فَسَقًا أَهْلًا يُعَيَّرُ اللَّهُ بِهِ فَمَنْ أَضَضَّرْ عَيْرَ بَاعٍ وَلَا عَادَ فَإِنَّ رَبَّكَ عَفُوفٌ رَحِيمٌ﴾

يقول تعالى أمراً عبده ورسوله محمداً، صلوات الله وسلامه عليه : ﴿قُلْ﴾ لهؤلاء الذين حرموا ما رزقهم الله افتراء على الله : ﴿لَا أُجِدُ فِي مَا أُوْحِي إِلَيَّ مُحْرَمًا عَلَى طَائِعِي بِطَعْمِهِ﴾ أى : أكل يأكله . قيل : معناه : لا أجد شيئاً مما حرمتم حراماً سوى هذه . وقيل : معناه : لا أجد من الحيوانات شيئاً حراماً سوى هذه . فعلى هذا يكون ما ورد من التحريمات بعد هذا فى سورة «المائدة»، وفى الأحاديث الواردة، رافعاً لمفهوم هذه الآية . ومن الناس من يسمي ذلك نسخاً، والاكثرون من المتأخرين لا يسمونه نسخاً؛ لأنه من باب رفع مباح الأصل، والله أعلم . وقال ابن عباس : ﴿أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا﴾ يعنى : المَهْرَاقُ . وقال عِكْرِمَةُ فى قوله : ﴿أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا﴾ : لولا هذه الآية لتتبع الناس ما فى العُرُوقِ، كما تتبعه اليهود . وقال قتادة : جرم من الدماء ما كان مسفوحاً، فأما لحم خالطه دم فلا بأس به . وروى ابن جرير عن عائشة : أنها كانت لا ترى بلحوم السباع بأساً، والحمرة والدم يكونان على القَدْرِ ، وقرأت هذه الآية . صحيح غريب^(٢).

وروى الحميدى عن عمرو بن دينار قال : قلت لجابر بن عبد الله : إنهم يزعمون أن رسول الله ﷺ نهى عن لحوم الحمر الأهلية زمن خيبر ؟ فقال : قد كان يقول ذلك «الحكم بن عمرو» عن رسول الله ﷺ ، ولكن أبى ذلك البحر - يعنى ابن عباس - وقرأ : ﴿قُلْ لَا أُجِدُ فِي مَا أُوْحِي إِلَيَّ مُحْرَمًا عَلَى طَائِعِي بِطَعْمِهِ﴾ الآية . رواه البخارى ، وأخرجه أبو داود ، ورواه الحاكم ، مع أنه فى صحيح البخارى، كما رأيت^(٣).

وروى ابن مردويه والحاكم عن ابن عباس قال : كان أهل الجاهلية يأكلون أشياء ويتركون أشياء تقذراً، فبعث الله نبيه وأنزل كتابه، وأحل حلاله وحرم حرامه، فما أحل فهو حلال، وما حرم فهو حرام، وما سكت عنه فهو عفو، وتلا هذه الآية : ﴿قُلْ لَا أُجِدُ فِي مَا أُوْحِي إِلَيَّ مُحْرَمًا عَلَى طَائِعِي بِطَعْمِهِ﴾ إلى آخر الآية . وهذا لفظ ابن مردويه . ورواه أبو داود وقال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه^(٤).

وروى الإمام أحمد عن ابن عباس قال : ماتت شاة لسودة بنت زمعة، فقالت : يا رسول الله، ماتت فلانة - تعنى الشاة - قال : «فلولا أخذتم مسكها ؟» . قالت : ناخذ مسك شاة قد ماتت ؟! فقال لها رسول الله ﷺ : «إنما قال الله : ﴿قُلْ لَا أُجِدُ فِي مَا أُوْحِي إِلَيَّ مُحْرَمًا عَلَى طَائِعِي بِطَعْمِهِ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا

(١) انظر ما مضى عند تفسير الآيات : (١٠٠ - ١٠٤) من سورة المائدة .

(٢) الطبرى (١٤٠٩٠) .

(٣) البخارى (٩ / ٥٦٤ ، ٥٦٥) مختصراً قليلاً . ولكن فيه «جابر بن زيد» بدل «جابر بن عبد الله» . وجابر بن زيد : هو أبو الشعثاء التابعى . ورواية الحاكم فى المستدرک (٢ / ٣١٧) كرواية الحميدى التى ذكرها الحافظ ابن كثير هنا . وأما رواية أبى داود (٣٨٠٨) ففى إسنادها راء مبهم، وفيها اختلاف عن هاتين الروايتين . والظاهر أنها خطأ من أحد الرواة .

(٤) الحاكم (٤ / ١١٥) ورواقه الذهبى على تصحيحه . وهو فى أبى داود (٣٨٠٠) . ورواه أيضا ابن حزم فى الإحكام (٨ / ٢٨) بتحقيقنا . واختصره قليلاً من آخره ، فلم يذكر الآية .

مُسْفُوْحًا أَوْ لَحْمَ خَيْزِرٍ»، وإنكم لا تطعمونه أن تدبغوه فتتضعوا به». فأرسلت فسليخت مسكها فذبغته، فاتخذت منه قرية، حتى تحرقت عندها (١). ورواه البخاري والنسائي عن ابن عباس، عن سودة بنت زمعة، بذلك أو نحوه. وقال سعيد بن منصور: حدثنا عبد العزيز بن محمد، عن عيسى بن نُمَيْلَةَ الفزاري، عن أبيه قال: كنت عند ابن عمر، فسأله رجل عن أكل القنفذ؟ فقرأ عليه: ﴿قُلْ لَا أُجِدُّ فِي مَا أُرْحِي إِلَيَّ مُحْرَمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ﴾ الآية، فقال شيخ عنده: سمعت أبا هريرة يقول: ذكر عند النبي ﷺ فقال: «خيث من الخبائث». فقال ابن عمر: إن كان النبي ﷺ قاله فهو كما قال. ورواه أبو داود (٢).

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ أي: فمن اضطر إلى أكل شيء مما حرم الله في هذه الآية الكريمة، وهو غير متلبس ببغى ولا عدوان ﴿فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي: غفور له، رحيم به. وقد تقدم تفسير هذه الآية في سورة البقرة بما فيه كفاية (٣). والمقصود من سياق هذه الآية الكريمة الرد على المشركين الذين ابتدعوا ما ابتدعوه، من تحريم المحرمات على أنفسهم بأرائهم الفاسدة من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ونحو ذلك، فأمر الله رسوله أن يخبرهم أنه لا يجد فيما أوحاه الله إليه أن ذلك محرم، وإنما حرم ما ذكر في هذه الآية من الميتة، والدم المسفوح، ولحم الخنزير، وما أهل لغير الله به. وما عدا ذلك فلم يحرم، وإنما هو عفو مسكوت عنه، فكيف تزعمون أنتم أنه حرام، ومن أين حرمتموه ولم يحرمه الله؟! وعلى هذا فلا ينفي تحريم أشياء آخر فيما بعد هذا، كما جاء النهي عن لحوم الخمر الأهلية ولحوم السباع، وكل ذي مخلب من الطير، على المشهور من مذاهب العلماء.

﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا أُحْرِمُوا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمَ مَا عَلَيْهِمْ شُحُومُهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوْ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَعْضِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾

قال ابن جرير: يقول تعالى: وحرمتنا على اليهود ﴿كُلَّ ذِي ظُفْرٍ﴾، وهو البهائم والطير ما لم يكن مشقوق الأصابع، كالإبل والنعام والأوز والبط. قال ابن عباس: هو البعير والنعامة. وكذا قال مجاهد. وقوله: ﴿وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمَ مَا عَلَيْهِمْ شُحُومُهُمَا﴾ قال السدي: يعني: الثَّرب (٤) وشحم الكلبيين. وكانت اليهود تقول: إنه حرمه إسرائيل فنحن نحرمه. وكذا قال ابن زيد. وقال قتادة: الثَّرب وكل شحم كان كذلك ليس في عظم. وقوله: ﴿أَوْ الْحَوَايَا﴾ قال ابن جرير: ﴿الْحَوَايَا﴾ جمع، واحداها حاوياء، وحايوة وحوية وهو ما تحوى من البطن فاجتمع واستدار، وهي بنات اللبن، وهي «المباعر»، وتسمى «المرايض»، وفيها الأمعاء. قال: ومعنى الكلام: ومن البقر والغنم حرمتنا عليهم شحومهما، إلا ما حملت ظهورهما، وما حملت الحوايا.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾ أي: إلا ما اختلط من الشحوم بعظم فقد أحللتناه لهم. وقال ابن جرير: شحم الآلية اختلط بالعصص، فهو حلال. وكل شيء في القوائم والجنب والرأس والعين وما اختلط بعظم، فهو حلال، ونحوه قال السدي. وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَعْضِهِمْ﴾ أي: هذا

(١) المسند (٣٠٢٧). (٢) أبو داود (٣٧٩٩) من طريق سعيد بن منصور.

(٣) مضى عند تفسير الآية: (١٧٣) من سورة البقرة.

(٤) الثرب - بفتح التاء الثلاثة وسكون الراء: شحم رقيق يغشى الكرش والأمعاء.

التضييق إنما فعلناه بهم وألزمناهم به، مجازاة لهم على بغيتهم ومخالفتهم وأمرنا، كما قال تعالى: ﴿فَظَلَمَ مَنْ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدْعِهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٦٠]. وقوله: ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ أى : وإنا لعادلون فيما جزيناهم به. وقال ابن جرير: وإنا لصادقون فيما أخبرناك به يا محمد من تحريمنا ذلك عليهم، لا كما زعموا من أن إسرائيل هو الذى حرمه على نفسه، والله أعلم. وقال عبد الله ابن عباس: بلغ عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، أن سمرة باع خمرًا، فقال: قاتل الله سمرة، ألم يعلم أن رسول الله ﷺ قال: «لعن الله اليهود، حرمت عليهم الشحوم فجملوا فباعوها». أخرجه .

وعن جابر بن عبد الله قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول عام الفتح: «إن الله ورسوله حرم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام». فقيل: يا رسول الله، أرأيت شحوم الميتة، فإنه يدهن بها الجلود وتطلى بها السفن، ويستصيح بها الناس. فقال: «لا، هو حرام». ثم قال رسول الله ﷺ عند ذلك: «قاتل الله اليهود، إن الله لما حرم عليهم شحومها جمّلوه، ثم باعوه وأكلوا ثمنه». رواه الجماعة. وعن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «قاتل الله اليهود! حرمت عليهم الشحوم، فباعوها وأكلوا ثمنها». رواه البخارى ومسلم. وروى ابن مردويه عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ كان قاعدًا خلف المقام، فرجع بصره إلى السماء فقال: «لعن الله اليهود - ثلاثًا - إن الله حرم عليهم الشحوم، فباعوها وأكلوا ثمنها، وإن الله لم يحرم على قوم أكل شيء إلا حرم عليهم ثمنه» (١).

وروى الإمام أحمد عن ابن عباس، قال: كان رسول الله ﷺ قاعدًا فى المسجد مستقبلًا الحجر، فنظر إلى السماء فضحك، [ثم] قال: «لعن الله اليهود، حرمت عليهم الشحوم فباعوها وأكلوا ثمنها، وإن الله إذا حرم على قوم أكل شيء حرم عليهم ثمنه». ورواه أبو داود (٢).

﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُمُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾

يقول تعالى: فإن كذبتك - يا محمد - مخالفتك من المشركين واليهود ومن شابههم، فقل: ﴿رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾ وهذا ترغيب لهم فى ابتغاء رحمة الله الواسعة، باتباع رسوله ﷺ ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ ترهيب لهم فى مخالفتهم الرسول خاتم النبيين. وكثيراً ما يقرن الله تعالى بين الترغيب والترهيب فى القرآن، كما قال تعالى فى آخر هذه السورة: ﴿إِنْ رَبُّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الآية: ١٦٥]. وقال: ﴿وَإِنْ رَبُّكَ لَذُو مَقْفَرٍ لِّلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الرعد: ٦]، وقال تعالى: ﴿نَبِيٌّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ. وَأَنْ عَدَايَ هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩، ٥٠]، وقال تعالى: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾ [غافر: ١٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ. إِنَّهُ هُوَ بَدِيٌّ وَبَعِيدٌ. وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ﴾ [البروج: ١٢-١٤]، والآيات فى هذا كثيرة جداً.

﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ

(١) رواه البخارى فى التاريخ الكبير - مختصراً - من الوجه الذى رواه ابن مردويه (١ / ٢ / ١٤٧)، وإسنادهما صحيح.

(٢) المسند (٢٢٢١)، وإسناده صحيح.

أنتُمْ إِلَّا تَحْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلُمْ شُهَدَاءُ كُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدُ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾

هذه مناظرة ذكرها الله تعالى وشبهة تثبت بها المشركون في شركهم وتحريم ما حرموا؛ فإن الله مطلع على ما هم فيه من الشرك والتحريم لما حرموه، وهو قادر على تغييره بأن يلهمنا الإيمان، وبحول بيننا وبين الكفر، فلم يغيره، فدل على أنه بمشيئته وإرادته ورضاه منا بذلك ! ولهذا قال : ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ﴾ كما في قوله : ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاكُمْ مَا لَكُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ [الزخرف: ١٢٠]، وكذلك الآية التي في «النحل» مثل هذه سواء ، قال تعالى : ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أى : بهذه الشبهة ضل من ضل قبل هؤلاء . وهى حجة داحضة باطلة؛ لأنها لو كانت صحيحة لما أذاقهم الله بأسه، ودمر عليهم، وأدال عليهم رسله الكرام، وأذاق المشركين من أليم الانتقام. ﴿قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ﴾ أى : بأن الله تعالى راض عنكم فيما أنتم فيه ﴿فَخَرُجُوا لَنَا﴾ أى : فظهوره لنا وتبينوه وتبرزوه ﴿إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ أى : الوهم والخيال . والمراد بالظن ههنا : الاعتقاد الفاسد . ﴿وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَحْرُصُونَ﴾ أى : تكذبون على الله فيما ادعيتموه .

وقوله تعالى : ﴿قُلْ لِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ، يقول تعالى لنبى ﷺ : ﴿قُلْ لَكُمْ يَا مُحَمَّدُ : ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾ أى : له الحكمة التامة، والحجة البالغة فى هداية من هدى، وإضلال من ضل ، ﴿فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ وكل ذلك بقدرته ومشيئته واختياره، وهو مع ذلك يرضى عن المؤمنين ويغض الكافرين، كما قال تعالى : ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى﴾ [الأنعام: ١٣٥]، وقال تعالى : ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٩٩]، وقال تعالى : ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ، وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ . إِلَّا مَنْ رَجِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٨ ، ١١٩] . قال الضحاك : لا حجة لأحد عصى الله، ولكن لله الحجة البالغة على عباده .

وقوله تعالى : ﴿قُلْ هَلُمْ شُهَدَاءُ كُمُ﴾ أى : أحضروا شهداءكم ﴿الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا﴾ أى : هذا الذى حرمتموه وكذبتم وافتريتم على الله فيه ﴿فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدُ مَعَهُمْ﴾ أى : لأنهم إنما يشهدون والحالة هذه كذباً وزوراً ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ أى : يشركون به، ويجعلون له عديلاً .

﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي كُمْ عَلَيْكُمْ إِلَّا تَشْرَكُوا بِهِ . سَيِّئًا وَبِالْوَالِدِينَ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِنَّهُمْ لَإِيْسَاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطُنٌ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَ وَصَّكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ﴿١٤٨﴾

عن ابن مسعود، قال : من أراد أن يقرأ صحيفة رسول الله ﷺ التى عليها خاتمها، فليقرأ هؤلاء الآيات : ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي كُمْ عَلَيْكُمْ﴾ إلى قوله : ﴿وَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (١) . وروى الحاكم عن ابن عباس

(١) لم يخرجها الحفاظ ابن كثير . وذكره السيوطى (٣ / ٥٤) بلفظ : « من سره أن ينظر إلى وصية محمد ﷺ - إلى آخره . ونسبه للترمذى وحسنه وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وأبى الشيخ وابن مردويه والبيهقى فى شعب الإيمان .

قال: إن في الأنعام آيات محكمات هن أم الكتاب، ثم قرأ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ﴾. الآيات . قال الحاكم : صحيح الإسناد، ولم يخرجاه (١). وروى الحاكم أيضاً عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: «أيكم يبأي على ثلاث؟» ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ﴾ حتى فرغ من الآيات فمن وفى فأجره على الله، ومن انتقص منهن شيئاً فأدركه الله به فى الدنيا كانت عقوبته ، ومن أخر إلى الآخرة فأمره إلى الله، إن شاء عذبه ، وإن شاء عفا عنه . ثم قال: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه (٢).

وأما تفسيرها فيقول تعالى لنبيه ورسوله محمد ﷺ: قل يا محمد - لهؤلاء المشركين الذين عبدوا غير الله، وحرّموا ما رزقهم الله، وقتلوا أولادهم وكل ذلك فعلوه بأرائهم وتسويل الشياطين لهم ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿تَعَالَوْا﴾ أى: هلموا وأقبلوا ﴿أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ﴾ أى: أقص عليكم وأخبركم بما حرم ربكم عليكم حقاً لا تحرصاً، ولا ظناً، بل وحياً منه وأمرأ من عنده ﴿أَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً﴾، وكان فى الكلام محذوفاً دل عليه السياق، وتقديره: ووصاكم ﴿أَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً﴾؛ ولهذا قال فى آخر الآية: ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، وتقول العرب: أمرتك ألا تقوم . وفى الصحيحين من حديث أبى ذر، قال: قال رسول الله ﷺ: «أتانى جبريل فبشرنى أنه من مات لا يشرك بالله شيئاً من أمتك، دخل الجنة». قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: «وإن زنى وإن سرق». قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: «وإن زنى وإن سرق». قلت: «وإن زنى وإن سرق». قلت: «وإن زنى وإن سرق وإن شرب الخمر؟ قال: «وإن زنى وإن سرق وإن شرب الخمر؟ قال: «وإن زنى وإن سرق». وفى بعض الروايات : أن القائل ذلك إنما هو أبو ذر لرسول الله ﷺ ، وأنه، عليه الصلاة والسلام، قال فى الثالثة: «وإن رغم أنف أبى ذر». فكان أبو ذر يقول بعد تمام الحديث: وإن رغم أنف أبى ذر . وفى بعض المسانيد والسنن عن أبى ذر ، قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: يا ابن آدم، إنك ما دعوتنى ورجوتنى فإنى أغفر لك على ما كان منك ولا أبالى، ولو أتيتنى بقراب الأرض خطيئة أتيتك بقرابها مغفرة ، ما لم تشرك بى شيئاً، وإن أخطأت حتى تبلغ خطاياك عتآن السماء ثم استغفرتنى، غفرت لك». ولهذا شاهد فى القرآن، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦]. وفى صحيح مسلم عن ابن مسعود: «من مات لا يشرك بالله شيئاً، دخل الجنة». والآيات والأحاديث فى هذا كثيرة جداً.

وقوله تعالى: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ أى: وأوصاكم وأمركم بالوالدين إحساناً، أى: أن تحسنوا إليهم، كما قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣]. وقرأ بعضهم: «ووصى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً». أى: أحسنوا إليهم . والله تعالى كثيراً ما يقرن بين طاعته وبر الوالدين، كما قال: ﴿أَنْ أَشْكُرَ لِمَنْ بَدَّلْتَنِي إِلَى الْمَصِيرِ. وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ

(١) المستدرک (٢ / ٣١٧) ووافقه الذهبى على تصحيحه .
(٢) المحاكم (٢ / ٣١٨) ووافقه الذهبى على تصحيحه . وزاد السيوطى (٣ / ٥٤) نسبه لعبد بن حميد وابن أبى حاتم وأبى الشيخ وابن مردويه .
(٣) الحديث مضى عند تفسير الآيتين : (٤٧ ، ٤٨) من تفسير سور النساء من رواية المسند بنحوه .
(٤) رواه أحمد فى المسند (٥ / ١٥٤ حلى) والدارمى (٢ / ٣٢٢) كلاهما بنحوه من حديث أبى ذر : رواه الترمذى - بنحوه - من حديث أنس (٢ / ٢٧٠) .

بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطْعِمُهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ [لقمان: ١٤، ١٥]. فأمر بالإحسان إليهما، وإن كانا مشركين، بحسبهما، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِأَوْلَادِهِمْ إِحْسَانًا﴾ الآية [البقرة: ٨٣]. والآيات في هذا كثيرة. وفي الصحيحين عن ابن مسعود، قال: سألت رسول الله ﷺ: أي العمل أفضل؟ قال: «الصلاة على وقتها». قلت: ثم أي؟ قال: «بر الوالدين». قلت: ثم أي؟ قال: «الجهاد في سبيل الله». قال ابن مسعود: حدثني بهن رسول الله ﷺ، ولو استردته لزادني .

وقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾: لما وصَّى تعالى ببر الآباء والأجداد، عطف على ذلك الإحسان إلى الأبناء والأحفاد، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ﴾، وذلك أنهم كانوا يقتلون أولادهم كما سَوَّكَتْ لهم الشياطين ذلك، فكانوا يتدون البنات خشية العار، وربما قتلوا بعض الذكور خيفة الافتقار؛ ولهذا جاء في الصحيحين، من حديث عبد الله بن مسعود، أنه سأل رسول الله ﷺ: أي الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك». قلت: ثم أي؟ قال: «أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك». قلت: ثم أي؟ قال: «أن تزاني حليلة جارك». ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ [الفرقان: ٦٨]. وقوله: ﴿مِنْ إِمْلَاقٍ﴾ قال ابن عباس، وقتادة، والسدي: هو الفقر، أي: ولا تقتلوه من فقركم الحاصل، وقال في سورة «سبحان»: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ﴾ [الإسراء: ٣١] أي: خيفة حصول فقر في الآجل؛ ولهذا قال هناك: ﴿نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾، فبدأ برزقهم للاهتمام بهم، أي: لا تخافوا من فقركم بسببهم، فرزقهم على الله. وأما في هذه الآية فلما كان الفقر حاصلًا، قال: ﴿نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ لأنه الأهم هاهنا، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ﴾، كقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣]. وقد تقدم تفسيرها في قوله: ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٠]. وفي الصحيحين، عن ابن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا أحد أغبر من الله، من أجل ذلك حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ». وعن المغيرة قال: قال سعد بن عبادة: لو رأيت مع امرأتي رجلاً لضربت بالسيف غير مُصَفَّح. فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «أتعجبون من غيرة سعد؟ فوالله لأنا أغبر من سعد، والله أغبر مني، من أجل ذلك حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ». أخرجاه (١).

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ وهذا بما نص تبارك وتعالى على النهي عنه تأكيداً، وإلا فهو داخل في النهي عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن، فقد جاء في الصحيحين عن ابن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله، وأتى رسول الله - إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة». وفي لفظ لمسلم: «والذي لا إله غيره لا يحل دم رجل مسلم». وروى أبو داود، والنسائي، عن عائشة، أن رسول الله ﷺ قال: «لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث خصال: زانٍ مُحْصَنٌ يُرْجَمُ، ورجل قتل متعمداً فيقتل، ورجل

(١) من حديث في البخارى (٩ / ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ١٢ / ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٣ / ٣٣٧ ، ٣٣٨ فتح) ومسلم (١ /

٤٣٨ ، ٤٣٩) . ورواه أحمد في المسند (٤ / ٢٤٨ حلي) .

يخرج من الإسلام حارب الله ورسوله، فيقتل أو يصلب أو ينفي من الأرض». وهذا لفظ النسائي. وعن أمير المؤمنين عثمان بن عفان، أنه قال وهو محصور: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: رجل كفر بعد إسلامه، أو زنى بعد إحصانه، أو قتل نفسا بغير نفس». فوالله ما زنت في جاهلية ولا إسلام، ولا تمنيت أن لى يدينى بدلا منه بعد إذ هدانى الله، ولا قتلت نفسا، فيم تقتلوننى؟! رواه الإمام أحمد، والترمذى، والنسائى، وابن ماجه. وقال الترمذى: هذا حديث حسن^(١).

وقد جاء النهى والزجر والوعيد فى قتل المعاهد - وهو المستامن من أهل الحرب - فروى البخارى، عن عبد الله بن عمر، عن النبى ﷺ قال: «من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاماً». وعن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: «من قتل معاهداً له ذممة الله وذمة رسوله، فقد أخضر بدمه الله، فلا يرح رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة سبعين خريفاً». رواه ابن ماجه، والترمذى، وقال: حسن صحيح.

وقوله: ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أى : هذا مما وصاكم به لعلكم تعقلون عن الله أمره ونهيه. ﴿وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْكَيْلِ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا تَكْلَفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾

عن ابن عباس قال: لما أنزل الله: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ و ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ غُلْفًا﴾ الآية [النساء: ١٠]، فانطلق من كان عنده يتيم فعزل طعامه من طعامه وشرابه من شرابه، فجعل يفضل الشيء فيحبس له حتى يأكله ويفسد. فاشتد ذلك عليهم، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ، فانزل الله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالطُوهُمْ فَاخْوَانُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٠]، قال: فخلطوا طعامهم بطعامهم، وشرابهم بشرابهم. رواه أبو داود^(٢).

وقوله: ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ قال الشعبي، ومالك، وغير واحد من السلف: معنى: حتى يحتلم. وقوله: ﴿وَأَوْفُوا بِالْكَيْلِ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾: يأمر تعالى بإقامة العدل فى الأخذ والإعطاء، كما توعد على تركه فى قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ. وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وُزَنُوا لَهُمْ يُخْسِرُونَ. أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ. لِيَوْمٍ عَظِيمٍ. يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المنففين: ١-٦]. وقد أهلك الله أمة من الأمم كانوا يبخسون الكيل والميزان. وقوله تعالى: ﴿لَا تَكْلَفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أى: من اجتهد فى أداء الحق وأخذه، فإن أخطأ بعد استفراغ وسعه وبذل جهده فلا حرج عليه.

وقوله: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ كما قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء: ١٣٥]، وكذا التى تشبهها فى سورة المائدة^(٣)، يأمر تعالى بالعدل فى الفعال والمقال، على القريب والبعيد، والله تعالى يأمر بالعدل لكل أحد، فى كل وقت،

(١) المسند (٤٦٨) بنحوه. ورواه أيضا مطولا ومختصرا: (٤٣٧، ٤٣٨، ٤٥٢، ٥٠٩).

(٢) مضمي تخريجه عند تفسير الآية: (٢٢٠) من سورة البقرة.

(٣) الآية رقم (٨).

وفى كل حال. ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾ قال ابن جرير: يقول وبوصية الله التي أوصاكم بها فأوفوا. وإيفاء ذلك: أن تطيعوه فيما أمركم ونهاكم، وتعملوا بكتابه وسنة رسوله، وذلك هو الوفاء بعهد الله. ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ يقول تعالى: هذا وصاكم به، وأمركم به، وأكد عليكم فيه ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أى: تتعظون وتتنبهون مما كنتم فيه قبل هذا. وقرأ بعضهم بتشديد «الذال»، وآخرون بتخفيفها.

﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾

قال ابن عباس فى قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ وفى قوله: ﴿اتَّبِعُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣]، ونحو هذا فى القرآن، قال: أمر الله المؤمنين بالجماعة، ونهاهم عن الاختلاف والتفرقة، وأخبرهم أنه إما هلك من كان قبلهم بالمرء والخصومات فى دين الله. ونحو هذا قال مجاهد، وغير واحد. وروى الإمام أحمد بن حنبل عن عبد الله - هو ابن مسعود، قال: خط رسول الله ﷺ خطاً بيده، ثم قال: «هذا سبيل الله مستقيماً». وخط عن يمينه وشماله، ثم قال: «هذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه». ثم قرأ: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾. وكذا رواه الحاكم، وقال: صحيح ولم يخرجاه، ورواه ابن جرير، ورواه الحاكم من طريق، وقال: صحيح ولم يخرجاه، ورواه النسائي وابن مردويه. فقد صححه الحاكم كما رأيت من الطريقتين (١)، وقد روى من حديث النّوّاس بن سمعان نحوه، روى الإمام أحمد عن النّوّاس بن سمعان، عن رسول الله ﷺ قال: «ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً، وعن جنبتي الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وعلى باب الصراط داع يقول: يا أيها الناس، ادخلوا الصراط المستقيم جميعاً، ولا ترجعوا وداع يدعو من جوف الصراط، فإذا أراد الإنسان أن يفتح شيئاً من تلك الأبواب قال: ويحك، لا تفتحه، فإنك إن تفتحه تلجّه، فالصراط الإسلام، والسوران حدود الله، والأبواب المفتحة محارم الله، وذلك الداعي على رأس الصراط كتاب الله، والداعي من فوق وأعطى الله فى قلب كل مسلم». ورواه الترمذى والنسائى، وقال الترمذى: حسن غريب (٢).

وقوله: ﴿فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾، إنما وحد سبيله لأن الحق واحد؛ ولهذا جمع السبل لتفرقتها وتشعبها، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولِيَاءُ لَهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٧]. وروى ابن أبى حاتم عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: «أيكم يبأيمنى على هؤلاء الآيات الثلاث؟». ثم تلا: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ﴾، حتى فرغ من ثلاث آيات، ثم قال: «ومن وقى بهن أجره الله، ومن انتقص منهن شيئاً فأدرکه الله فى الدنيا كانت عقوبته، ومن أخره إلى الآخرة كان أمره إلى الله إن شاء أخذه، وإن شاء عفا عنه» (٣).

(١) المسند (٤٤٣٧). ورواه أيضاً (٤١٤٢) والحاكم (٣١٨/٢). ورواه أيضاً ابن حبان فى صحيحه، رقم (٥) بتحقيقنا.

وهو فى مجمع الزوائد (٧ / ٢٢) وقال: «رواه أحمد والبرز، وفيه عاصم ابن بهدلة، وهو ثقة، وفيه ضعف».

(٢) المسند (١٧٧١١). وقد مضى عند تفسير الآية: (٦) من سورة الفاتحة.

(٣) مضى من رواية الحاكم.

﴿ ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّعِبَادِهِمُ بِنِعْمَةِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴾ . وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مَبْرُورًا فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٤﴾

قال ابن جرير: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ تقديره: ثم قل - يا محمد - مخبراً عنا بأننا آتينا موسى الكتاب، بدلالة قوله: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾. قلت: وفي هذا نظر، و ﴿ثُمَّ﴾ ههنا إنما هي لعطف الخبر بعد الخبر، لا للترتيب ههنا، كما قال الشاعر:

قُلْ لِمَنْ سَادَ ثُمَّ سَادَ أَبُوهُ
ثُمَّ مِنْ قَبْلِ ذَلِكَ قَدْ سَادَ جَدُّهُ

وههنا لما أخبر الله تعالى عن القرآن بقوله: ﴿وَأَنْ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾ - عطف بمدح التوراة ورسولها، فقال: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾. وكثيراً ما يقرن الله تعالى بين ذكر القرآن والتوراة، كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ قِيلَ لَهُ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا﴾ [الاحقاف: ١٢]، وقوله أول هذه السورة: ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قُرْآنًا تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ [الآية: ١٩١]، وبعدها: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مَبْرُورًا﴾ الآية [الأنعام: ١٩٢]، وقال تعالى مخبراً عن المشركين: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى﴾ قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلِ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرُونَ﴾ [القصص: ١٤٨]، وقال تعالى مخبراً عن الجن أنهم قالوا: ﴿قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أَنْزَلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الاحقاف: ٣٠].

وقوله تعالى: ﴿تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا﴾ أي: آتيناها الكتاب الذي أنزلناه إليه تماماً كاملاً جامعاً لجميع ما يحتاج إليه في شريعته، كما قال تعالى: ﴿وَكُنَّا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ الآية [الاعراف: ١٤٥]. وقوله: ﴿عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾ أي: جزء على إحسانه في العمل، وقيامه بأوامرنا وطاعتنا، كقوله: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: ٦٠]، وكقوله: ﴿وَإِذْ أَنْبَأْنَا إِبْرَاهِيمَ رَبِّهِ بِكَلِمَاتِ فَاتَمَّهِنَّ قَالَ أَنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤]، وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بآيَاتِنَا يُوَفُونَ﴾ [السجدة: ٢٤] (١). وقال الربيع بن أنس: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾ يقول: أحسن فيما أعطاه الله. وقال قتادة: من أحسن في الدنيا تم له ذلك في الآخرة. واختار ابن جرير أن تقدير الكلام: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا﴾ على إحسانه. فكانه جعل «الذي» مصدرية، كما قيل في قوله تعالى: ﴿وَحَضَّمْتُمْ كَالَّذِي خَاصُوا﴾ [التوبة: ٦٩] أي: كخوضهم، وقال آخرون: «الذي» ههنا بمعنى «الذين». قال ابن جرير: وقد ذكر عن عبد الله بن مسعود: أنه كان يقرؤها: «تماماً على الذين أحسنوا». وقال مجاهد: ﴿تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾ قال: على المؤمنين والمحسنين، وكذا قال أبو عبيدة. وقال البغوي: والمحسون: الأنبياء والمؤمنون، يعني: أظهرنا فضله عليهم. قلت: كما قال تعالى: ﴿قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلَامِي﴾ [الاعراف: ١٤٤]، ولا يلزم اصطفاؤه على محمد ﷺ خاتم الأنبياء والخليل، عليهما السلام، لأدلة أخرى. قال ابن جرير: وروى أبو عمرو بن العلاء عن يحيى بن يعمر أنه كان يقرؤها: ﴿تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾، رفعا، بتأويل: على الذي هو أحسن، قال: وهذه قراءة لا أستجيز القراءة بها، وإن كان لها في العربية وجه صحيح. وقيل: معناه: تماماً على إحسان الله إليه زيادة على (١) في المطبوع من «عمدة التفسير» وكذا المخطوطة الأزهرية: «وجعلناهم أمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوفون» وهو خلط بين آيتي السجدة - هذه - والأنبياء (٧٣). (البار).

ما أحسن الله إليه، حكاة ابن جرير، والبيغوى. ولا منافاة بينه وبين القول الأول، وبه جمع ابن جرير كما بيناه، والله الحمد.

وقوله: ﴿وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾: فيه مدح لكتابه الذى أنزله الله عليه ﴿لَعَلَّكُمْ يَلْقَاءُ بِهِمْ يُؤْمِنُونَ . وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾: فيه الدعوة إلى اتباع القرآن ووصفه بالبركة لمن اتبعه وعمل به فى الدنيا والآخرة .

﴿أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَفَقِيتَ رَبَّنَا أَنْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بَيِّنَاتٍ مِنَ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَاجِدِينَ الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾

قال ابن جرير: معناه: وهذا كتاب أنزلناه لثلاثا تقولوا: ﴿إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا﴾. يعنى: لينقطع عذرکم، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ لَا أَنْ نَصِيحُهُمْ مِصْبَةٌ بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا (١) رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَرَّضَ آيَاتِكَ وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الفصص: ٤٧]. وقوله: ﴿عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا﴾ قال ابن عباس: هم اليهود والنصارى وكذا قال مجاهد، وقتادة، وغير واحد. وقوله: ﴿وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَفَقِيتَ رَبَّنَا﴾ أى: وما كنا نفهم ما يقولون؛ لأنهم ليسوا بلساننا، ونحن فى شغل وغفلة مع ذلك عما هم فيه .

وقوله: ﴿أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ﴾ أى: وقطعنا لتعللكم أن تقولوا: لو أنا أنزل علينا ما أنزل عليهم لكننا أهدى منهم فيما أتوه، كقوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لِيَكُونُوا أَهْدَى مِنْ إْحْدَى الْأُمَّمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ [فاطر: ١٤٢] ، وهكذا قال هاهنا: ﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ يقول: فقد جاءكم من الله على لسان محمد ﷺ النبى العربى قرآن عظيم، فيه بيان للحلال والحرام، وهدى لما فى القلوب، ورحمة من الله لعباده الذين يتبعونه ويقفون ما فيه .

وقوله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بَيِّنَاتٍ مِنَ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾ أى: لم ينتفع بما جاء به الرسول، ولا اتبع ما أرسل به، ولا ترك غيره، بل صدف عن اتباع آيات الله، أى: صرف الناس وصددهم عن ذلك، قاله السدى. وعن ابن عباس، ومجاهد، وقتادة: ﴿وَصَدَفَ عَنْهَا﴾: أعرض عنها. وقول السدى ههنا فيه قوة؛ لأنه قال: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بَيِّنَاتٍ مِنَ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾، كما تقدم فى أول السورة: ﴿وَهُمْ يَبْهُونَ عَنْهُ وَيَتَنَبَّأُونَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ [الآية: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ذُرِّيَّتَهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ﴾ [النحل: ٨٨]، وقال فى هذه الآية الكريمة: ﴿سَجَزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾. وقد يكون المراد كما قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بَيِّنَاتٍ مِنَ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾ أى: لا آمن بها ولا عمل بها، كقوله تعالى: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى﴾. ولكن كذب وتولى﴾ [القيامة: ٣١]، ٣٢، ونحو ذلك من الآيات الدالة على احتمال الكافر على التكذيب بقلبه، وترك العمل بجوارحه، ولكن كلام السدى أقوى وأظهر، والله أعلم.

(١) فى المطبوعة والمطبوع من «عمدة التفسير»: «لقالوا» وهو خطأ واضح. (البار).

﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَوْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انظُرُوا أَيَّامًا تُنتظرون ﴾

يقول تعالى متوعداً للكافرين به، والمخالفين لرسوله والمكذبين آياته، والصادقين عن سبيله: ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ ﴾، وذلك كائن يوم القيامة ﴿ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ ﴾ وذلك قبل يوم القيامة كائن من أمارات الساعة وأشراطها، كما روى البخارى عن أبى هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: « لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا رآها الناس آمن من عليها. فذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل ﴾. أخرجه بقية الجماعة فى كتبهم إلا الترمذى. وروى ابن جرير عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: « ثلاث إذا خرجن ﴾ لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً ﴾: طلوع الشمس من مغربها، والدجال، ودابة الأرض. ورواه أحمد، وعنده: « والدخان ». ورواه مسلم (١). وروى ابن جرير عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: « لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت آمن الناس كلهم، وذلك حين ﴾ لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل ﴾ الآية (٢). وروى ابن جرير عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: « من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها، قبل منه ». لم يخرج أحد من أصحاب الكتب الستة (٣). وعن أبى ذر جندب بن جنادة قال: قال رسول الله ﷺ: « تدرى أين تذهب الشمس إذا غربت؟ ». قلت: لا أدري! قال: « إنها تنتهى دون العرش، فتخر ساجدة، ثم تقوم حتى يقال لها: ارجعى فيوشك يا أبا ذر أن يقال لها: ارجعى من حيث جئت، وذلك حين ﴾ لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل ﴾ ». رواه الشيخان وغيرهما. وروى الإمام أحمد عن حذيفة بن أسيد [أبى سريحة] الغفارى قال: أشرف علينا رسول الله ﷺ من غرفة، ونحن نذاكر الساعة، فقال: « لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات: طلوع الشمس من مغربها، والدخان، والدابة، وخروج يأجوج ومأجوج، وخروج عيسى ابن مريم، والدجال، وثلاثة خسوف: خسف بالشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب، ونار تخرج من قعر عدن، تسوق - أو: تحشر - الناس، تبيت معهم حيث باتوا، وتقبل معهم حيث قالوا ». رواه مسلم وأهل السنن الأربعة وقال الترمذى: حسن صحيح (٤). وعن صفوان بن عسال قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « إن الله فتح باباً قبل المغرب عرضه سبعون عاماً للتوبة، لا يغلق حتى تطلع الشمس منه ». رواه الترمذى وصححه النسائى، وابن ماجه من حديث طويل.

وروى الإمام أحمد عن أبى زرعة بن عمرو بن جرير قال: جلس ثلاثة نفر من المسلمين إلى مروان بالمدينة فسمعوه وهو يحدث عن الآيات: أن أولها خروج الدجال. قال: فانصرف نفر إلى عبد الله بن عمرو، فحدثوه بالذى سمعوه من مروان فى الآيات، فقال: لم يقل مروان شيئاً! قد

الطبرى (١٤٢٤٧) والمسند (٩٧٥١). (٢) الطبرى (١٤٢١٩).

الطبرى (١٤٢٢٠). ورواه أحمد فى المسند (٧٦٩٧). وقد بينت فى تخريجه فى المسند أنه رواه مسلم فى صحيحه (٢/٣١٢). فلا ينبغي أن يوصف بأنه لم يخرج أحد من أصحاب الكتب الستة.

المسند (١٦٢١٣) ومسلم (٢/٣٦٦، ٣٦٧). وقد مضى عند تفسير الآيات: (١٥٥ - ١٥٩) من سورة النساء.

حفظت من رسول الله ﷺ يقول: «إن أول الآيات خروجا طلوع الشمس من مغربها وخروج الدابة ضحى، فأيتهما كانت قبل صاحبها فالأخرى على إثرها». ثم قال عبد الله - وكان يقرأ الكتب -: وأظن أولها خروجا طلوع الشمس من مغربها، وذلك أنها كلما غربت أتت تحت العرش وسجدت واستأذنت في الرجوع، فأذن لها في الرجوع، حتى إذا بدا الله أن تطلع من مغربها فعلت كما كانت تفعل: أتت تحت العرش فسجدت واستأذنت في الرجوع، فلم يرد عليها شيء، ثم تستأذن في الرجوع فلا يرد عليها شيء، حتى إذا ذهب من الليل ما شاء الله أن يذهب، وعرفت أنه إذا أذن لها في الرجوع لم تدرك المشرق، قالت: رب، ما أبعد المشرق. من لى بالناس؟ حتى إذا صار الأفق كأنه طوق استأذنت في الرجوع، فيقال لها: من مكانك فاطلعي. فطلعت على الناس من مغربها، ثم تلا عبد الله هذه الآية: ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا﴾ الآية. وأخرجه مسلم وأبو داود وابن ماجه (١). وروى الإمام أحمد عن ابن السعدي: أن رسول الله ﷺ قال: «لا تنقطع الهجرة ما دام العدو يُقاتل». فقال معاوية، وعبد الرحمن بن عوف، وعبد الله بن عمرو بن العاص: إن النبي ﷺ قال: «إن الهجرة خصلتان: إحداهما تهجر السيئات، والأخرى تهاجر إلى الله ورسوله، ولا تنقطع ما تُقبَلت التوبة، ولا تزال التوبة مقبولة حتى تطلع الشمس من المغرب، فإذا طلعت طبع على كل قلب بما فيه، وكفى الناس العمل». هذا الحديث حسن الإسناد، ولم يخرج أحد من أصحاب الكتب الستة (٢).

ف قوله: ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ﴾ أى: إذا أنشأ الكافر إيماناً يومئذ لا يقبل منه، فأما من كان مؤسناً قبل ذلك، فإن كان مصلحاً في عمله فهو بخير عظيم، وإن كان مخلطاً فأحدث توبة يومئذ لم تقبل منه توبته، كما دلت عليه الأحاديث المتقدمة، وعليه يحمل قوله تعالى: ﴿أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا﴾ أى: ولا يقبل منها كسبُ عمل صالح إذا لم يكن عاملاً به قبل ذلك. وقوله: ﴿قُلْ أَنْظَرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ﴾: تهديد شديد للكافرين، ووعد أكيد لمن سَوَّفَ بإيمانه وتوبته إلى وقت لا ينفعه ذلك. وإنما كان هذا الحكم عند طلوع الشمس من مغربها، لا اقتراب وقت القيامة، وظهور أشراتها كما قال: ﴿فَقِيلَ يَنْظُرُونَ أَلَيْسَ السَّاعَةَ أَنْ نَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ﴾ [محمد: ١٨]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ. فَلَمْ يَكْ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سَبَّ اللَّهُ الَّذِي قَدْ خَلَقَ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ [آغاف: ٨٤، ٨٥].

﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِعْعًا لَسْتُ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾

قال مجاهد، وقتادة، والضحاك، والسدي: نزلت هذه الآية في اليهود والنصارى. وقال ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِعْعًا﴾ وذلك أن اليهود والنصارى اختلفوا قبل أن يبعث محمد ﷺ، ففترقوا. فلما بعث محمد ﷺ أنزل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَارَقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِعْعًا لَسْتُ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ الآية. والظاهر

(١) المسند (٦٨٨١). ورواه الطبري أيضا مطولا (١٤٢١٤، ١٤٢١٥). وقد تساهل الحافظ ابن كثير في نسبه لمسلم وأبي داود وابن ماجه، فإنهم لم يخرجوه بهذه السياقة، إنما رووا قطعة منه مختصرة. ولذلك ذكره الهيثمي في الزوائد (٨ / ٨، ٩) عن هذه الرواية. وأصاب في ذلك. ورواه الحاكم (٤ / ٥٠٠، ٥٠١، ٥٤٧، ٥٤٨). وتفصيل التخريج في المسند والطبري.

(٢) المسند (١٦٧٢). ورواه الطبري (١٤٢١٢) مختصرا.

أن الآية عامة في كل من فارق دين الله وكان مخالفاً له، فإن الله بعث رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وشرعه واحد لا اختلاف فيه ولا افتراق، فمن اختلف فيه ﴿وَكُنَّا شِعْبًا﴾ أى: فرقاً كأهل الملل والنحل - وهى الأهواء والضلالات - فالله قد برأ رسوله مما هم فيه . وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ الآية [الشورى: ١٣]، وفى الحديث: «نحن معاشر الأنبياء أولاد علات، ديننا واحد». فهذا هو الصراط المستقيم، وهو ما جاءت به الرسل : من عبادة الله وحده لا شريك له، والتمسك بشريعة الرسول المتأخر، وما خالف ذلك فضلالات وجهالات وآراء وأهواء، والرسل برآء منها، كما قال: ﴿لَسْتُ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾.

وقوله: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ كقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِغِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [الحج: ١٧]. ثم بين كيفية فصله يوم القيامة فى حكمه وعدله فقال:

﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرٌ مِمَّا كَسَبَ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾

وهذه الآية الكريمة مفصلة لما أجمل فى الآية الأخرى، وهى قوله: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا﴾ [النمل: ٢٨٩]، وقد وردت الأحاديث مطابقة لهذه الآية، كما روى الإمام أحمد عن ابن عباس، أن رسول الله ﷺ قال فيما يروى عن ربه، تبارك وتعالى: «إن ربكم عز وجل رحيم، من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له عشرةا إلى سبعمائة، إلى أضعاف كثيرة. ومن هم بسيئة فلم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له واحدة، أو يحوها الله، عز وجل، ولا يهلك على الله إلا هالك». ورواه البخارى، ومسلم، والنسائى (١). وروى أحمد أيضاً: عن أبى ذر، قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله، عز وجل: من عمل حسنة فله عشر أمثالها وأزيد. ومن عمل سيئة فجزاؤه مثلها أو أغفر. ومن عمل قرأب الأرض خطيئة ثم لقينى لا يشرك بى شيئا جعلت له مثلها مغفرة. ومن اقترب إلى شبرا اقتربت إليه ذراعا، ومن اقترب إلى ذراعا اقتربت إليه باعاً، ومن اتانى يمشى أتته هرولة». رواه مسلم وابن ماجه . وروى الحافظ أبو يعلى الموصلى عن أنس بن مالك، أن رسول الله ﷺ قال: «من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له عشرةا. ومن هم بسيئة فلم يعملها لم يكتب عليه شيء، فإن عملها كتبت عليه سيئة واحدة» (٢).

واعلم أن تارك السيئة الذى لا يعملها على ثلاثة أقسام : تارة يتركها لله ، فهذا تكتب له حسنة على كفه عنها لله تعالى ، وهذا عمل ونية ؛ ولهذا جاء أنه يكتب له حسنة ، كما جاء فى بعض ألفاظ الصحيح : «فإنما تركها من جرأى » ، أى : من أجلى . وتارة يتركها نسياناً ودُهوراً عنها، فهذا لا له ولا عليه؛ لأنه لم ينو خيراً ولا فعل شراً. وتارة يتركها عجزاً وكسلاً عنها بعد السعى فى أسبابها والتلبس بما يقرب منها، فهذا بمنزلة فاعلها، كما جاء الحديث فى الصحيحين عن النبى ﷺ أنه قال : « إذا تواجه المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول فى النار». قالوا: يا رسول الله، هذا القاتل، فما بال

(١) المسند (٢٥١٩) . ورواه قبل ذلك مختصراً (٢٠٠١) .

(٢) إسناده صحيح . وذكره الهيثمى فى الزوائد (١٤٥/١٠) وقال : « رواه أبو يعلى ، ورجاله رجال الصحيح » .

المقتول؟ قال: «إنه كان حريصاً على قتل صاحبه» (١). وروى الإمام أحمد عن خريم بن فاتك الأسدي؛ أن النبي ﷺ قال: «الناس أربعة، والأعمال ستة. فالناس مَوْسَعٌ له في الدنيا والآخرة، وموسع له في الدنيا مَقْتور عليه في الآخرة، ومقتور عليه في الدنيا موسع له في الآخرة، وشَقِيٌّ في الدنيا والآخرة. والأعمال مَوْجِبَاتان، ومثل بمثل، وعشرة أضعاف، وسبعمائة ضعف؛ فالموجبتان من مات مسلماً مؤمناً لا يشرك بالله شيئاً وَجِبَتْ له الجنة، ومن مات كافراً وَجِبَتْ له النار. ومن همَّ بحسنة فلم يعملها، فعلم الله أنه قد أشعرها قلبه وحرَّص عليها، كتبت له حسنة. ومن همَّ بسيئة لم تكتب عليه، ومن عملها كتبت واحدة ولم تضاعف عليه. ومن عمل حسنة كانت له بعشرة أمثالها. ومن أنفق نفقة في سبيل الله، عز وجل، كانت له بسبعمائة ضعف». ورواه الترمذي والنسائي ببعضه (٢).

وروى ابن أبي حاتم عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، عن النبي ﷺ قال: «يحضر الجمعة ثلاثة نفر: رجل حضرها بلغوا فهو حَظُّهُ منها، ورجل حضرها بدعاء، فهو رجل دعا الله، فإن شاء أعطاه، وإن شاء منعه، ورجل حضرها بإنصات وسكوت ولم يتخطَّ رقبة مسلم ولم يؤذ أحداً، فهي كفارة له إلى الجمعة التي تليها وزيادة ثلاثة أيام؛ وذلك لأن الله يقول: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ (٣). وعن أبي ذر، قال: قال رسول الله ﷺ: «من صام ثلاثة أيام من كل شهر فقد صام الدهر كله». رواه الإمام أحمد - وهذا لفظه - والنسائي، وابن ماجه، والترمذي، وزاد: «فأنزل الله تصديق ذلك في كتابه: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ اليوم بعشرة أيام»، ثم قال: هذا حديث حسن. والأحاديث والآثار في هذا كثيرة جداً، وفيما ذكر كفاية، إن شاء الله، وبه الثقة.

﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾
﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ لَا شَرِيكَ لَهٗ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٢٣﴾

يقول تعالى أمراً لنبيه ﷺ سيد المرسلين أن يخبر بما أنعم به عليه من الهداية إلى صراطه المستقيم، الذي لا اعوجاج فيه ولا انحراف ﴿دِينًا قِيمًا﴾ أي: قائماً ثابتاً ﴿مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ كقولہ: ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنِ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مِنْ سَفَهٍ نَفْسَهُ﴾ [البقرة: ١٣٠]، وقوله: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الحج: ٧٨]، وقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ. شَاكِرًا لِأَنْعَمَ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ. وَآيَاتِهِ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ. ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [التنعل: ١٢٠-١٢٣].

وليس يلزم من كونه عليه السلام أمر باتباع ملة إبراهيم الحنيفة أن يكون إبراهيم أكمل منه فيها؛ لأنه، عليه السلام، قام بها قياماً عظيماً، وأكملت له إكمالاً تاماً لم يسبقه أحد إلى هذا الكمال؛ ولهذا كان خاتم الأنبياء، وسيد ولد آدم على الإطلاق، وصاحب المقام المحمود الذي يرغب إليه الخلق كلهم،

(١) البخارى (١ / ١٨ ، ١٢ / ١٧٣ فتح) ومسلم (٢ / ٣٦٢) كلاهما من حديث أبي بكره . وقد مضى بنحوه عند تفسير الآيات: (٢٧ - ٣١) من سورة المائدة من رواية أخرى للشيخين أيضاً عن أبي بكره بلفظ: «إذا تواجها المسلمان».

(٢) المسند (٤ / ٣٤٥ حلى) . وهو حديث صحيح .

(٣) إسناده صحيح . ورواه أيضاً أحمد في المسند (٢ / ٧٠٠) . ورواه قبل ذلك مختصراً (١ / ٦٧٠) ، وفصلنا تخريجه هناك .

حتى إبراهيم الخليل، عليه السلام. وقد روى ابن مردويه عن ابن أبيزى، عن أبيه قال: كان رسول الله ﷺ إذا أصبح قال: «أصبحنا على ملة الإسلام، وكلمة الإخلاص، ودين نبينا محمد، وملة أبينا إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين» (١). وروى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: قيل لرسول الله ﷺ: أي الأديان أحب إلى الله تعالى؟ قال: «الحنيفية السمحة» (٢). وروى أحمد عن عائشة، قالت: وضع رسول الله ﷺ ذقني على منكبه، لانتظر إلى زفن الحبشة، حتى كنت التي مللت فانصرفت عنه. قال لى عروة: إن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ يومئذ: «لتعلم يهود أن في ديننا فسحة»، إني أرسلت بحنيفة سمحة» (٣). أصل الحديث مخرج في الصحيحين، والزيادة لها شواهد من طرق عدة، وقد استقصيت طرقها في شرح البخارى، والله الحمد والمنة.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾: يأمره تعالى أن يخبر المشركين - الذين يعبدون غير الله ويذبحون لغير اسمه - أنه مخالف لهم في ذلك، فإن صلواته لله ونسكه على اسمه وحده لا شريك له، وهذا كقوله تعالى: ﴿فصل لربك وأنحر﴾ [الكوثر: ٢] أى: أخلص له صلاتك وذبحتك، فإن المشركين كانوا يعبدون الأصنام ويذبحون لها، فأمره الله تعالى بمخالفتهم والانحراف عما هم فيه، والإقبال بالقصد والنية والعزم على الإخلاص لله تعالى.

وقوله: ﴿وَأَنَا أَوْلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ قال قتادة: أى من هذه الأمة. وهو كما قال، فإن جميع الأنبياء قبله كلهم كانت دعوتهم إلى الإسلام، وأصله عبادة الله وحده لا شريك له، كما قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]. وقد أخبر تعالى عن نوح أنه قال لقومه: ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأَمْرٌ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٧٢]. وقال تعالى: ﴿وَمَنْ بَرَّعَبَ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ . وَرَضِيَ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٠ - ١٣٢]. وقال يوسف، عليه السلام: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمَلِكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١]. وقال موسى: ﴿يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ . فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِقَوْمِ الظَّالِمِينَ . وَجَنَّا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [يونس: ٨٤ - ٨٦]. وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يُحْكَمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَنْبِيَاءُ﴾ الآية [المائدة: ٤٤]. وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتَ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [المائدة: ١١١].

فأخبر الله تعالى أنه بعث رسله بالإسلام، ولكنهم متفاوتون فيه بحسب شرائعهم الخاصة التي ينسخ بعضها بعضاً، إلى أن نسخت بشريعة محمد ﷺ التي لا تنسخ أبد الأبد، ولا تزال قائمة منصوره، وأعلامها منشورة إلى قيام الساعة؛ ولهذا قال عليه السلام: «نحن معاشر الأنبياء أولاد علات ديننا واحد» (٤). فإن أولاد العلات: هم الإخوة من أب واحد وأمها شتى، فالدين واحد وهو عبادة الله وحده لا شريك له، وإن تنوعت الشرائع التي هي بمنزلة الأمهات، كما أن إخوة الأخياف

(١) إسناده صحيح . (٢) المسند (٧/٢١٠) . وإسناده صحيح .

(٣) المسند (٦/١١٦) حلى . وإسناده صحيح . وقد مضت الإشارة إليه مختصراً عند تفسير الآية: (٢٨٦) من سورة البقرة .

(٤) مضى مراراً، آخرها عند تفسير الآيات: (٤٨ - ٥٠) من سورة المائدة .

عكس هذا : بنو الأم الواحدة من آباء شتى ، والإخوة الأعيان : الأشقاء من أب واحد وأم واحدة ، والله أعلم .

وقد روى الإمام أحمد عن علي رضى الله عنه ؛ أن رسول الله ﷺ كان إذا كبر استفتح ، ثم قال : ﴿ وَجْهَتْ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام : ٧٩] ، ﴿ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ ، اللهم أنت الملك ، لا إله إلا أنت ، أنت ربى وأنا عبدك ، ظلمت نفسي واعترفت بذنبي ، فاغفر لى ذنوبى جميعاً ، لا يغفر الذنوب إلا أنت ، واهدنى لأحسن الأخلاق ، لا يهدى لأحسنها إلا أنت ، واصرف عنى سيئها ، لا يصرف عنى سيئها إلا أنت ، تباركت وتعاليت ، أستغفرك وأتوب إليك . ثم ذكر تمام الحديث فيما يقوله فى الركوع والسجود والتشهد . وقد رواه مسلم فى صحيحه (١) .

﴿ قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ بِنِعْمَةِ رَبِّيَ وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَبَشِّرْهُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخَلِّفُونَ ﴾

يقول تعالى : ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين بالله فى إخلاص العبادة له والتوكل عليه : ﴿ أَغْيَرَ اللَّهُ أَبْعِي رَبًّا ﴾ أى : أطلب ربا سواه ، وهو رب كل شىء ، يربىنى ويحفظنى ويكلونى ويدبر أمرى ، أى : لا أتوكل إلا عليه ، ولا أنيب إلا إليه ؛ لأنه رب كل شىء ومليكه ، وله الخلق والأمر . فهذه الآية فيها الأمر بإخلاص التوكل ، كما تضمنت الآية التى قبلها إخلاص العبادة له لا شريك له . وهذا المعنى يقرب بالآخر كثيراً فى القرآن ، كقوله تعالى مرشداً لعباده أن يقولوا له : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة : ٥] ، وقوله : ﴿ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ [هود : ١٢٣] ، وقوله : ﴿ قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ [الملك : ٢٩] ، وقوله : ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴾ [المزمل : ٩] ، وأشبه ذلك من الآيات .

وقوله : ﴿ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ إخبار عن الواقع يوم القيامة فى جزاء الله تعالى وحكمه وعدله ، أن النفوس إنما تجازى بأعمالها ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، وأنه لا يحمل من خطيئة أحد على أحد . وهذا من عدله تعالى ، كما قال : ﴿ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جَمَلٍهَا لَا يُحْمَلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾ [فاطر : ١٨] ، وقوله : ﴿ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴾ [طه : ١١٢] ، قال العلماء بالتفسير : أى فلا يظلم بأن يحمل عليه سيئات غيره ، ولا يهضم بأن ينقص من حسناته . وقال تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ . إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴾ [المدثر : ٣٨ ، ٣٩] ، معناه : كل نفس مرتهنة بعملها السيئ إلا أصحاب اليمين ، فإنه قد تعود بركات أعمالهم الصالحة على ذراريهم وقرباتهم ، كما قال فى سورة الطور : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلْتَنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ [الآية : ٢١] (٢) ، أى : ألحقنا بهم ذرياتهم فى المنزلة الرفيعة فى الجنة ، وإن لم يكونوا قد شاركوهم فى الأعمال ، بل فى أصل الإيمان ﴿ وَمَا أَلْتَنَاهُمْ ﴾ أى : أنقصنا أولئك السادة الرفعاء من أعمالهم شيئاً حتى ساويناهم وهؤلاء الذين هم أنقص منهم فى المنزلة ،

(١) المسند (٧٢٩) وصحيح مسلم (١ / ٢١٥) والمحلى لابن حزم (٤ / ٩٥ ، ٩٦) بتحقيقنا .

(٢) ﴿ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ فى الموضعين فى هذه الآية من سورة الطور - بالجمع - هى قراءة ابن عامر وأبى عمرو ، من السبعة . وبها كتب الحافظ المؤلف فى هذا الموضع ، كما ثبت فى المخطوطتين . وقراءة حفص وغيره ﴿ ذُرِّيَّتِهِمْ ﴾ فى الموضعين ، بالإفراد .

بل رفعهم تعالى إلى منازل الآباء ببركة أعمالهم، بفضله ومنه ، ثم قال: ﴿كُلُّ أُمَّرٍ بِمَا كَسَبَ رَهِيْنٌ﴾ [الطور: ٢١] أى: من شر . وقوله : ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهٖ تَخْتَلِفُونَ﴾ أى : اعملوا على مكائنتكم ، إنا عاملون على ما نحن عليه ، فستعرضون وتعرض عليه ، وبيننا وإياكم بأعمالنا وأعمالكم ، وما كنا نختلف فيه في الدار الدنيا ، كما قال : ﴿قُلْ لَا تَسْأَلُونَ عَمَّا أٰجْرَمْنَا وَلَا نَسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ . قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَاتِحُ الْعَلِيمُ﴾ [سبا: ٢٥ ، ٢٦] .

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ سِيْرًا لِّئَلَّا تُتَّكَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

يقول تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ﴾ أى : جعلكم تعمرون الأرض جيلا بعد جيل ، وقرنا بعد قرن ، وخلفا بعد سلف . قاله ابن زيد وغيره ، كما قال : ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجْعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ﴾ [الزخرف: ٦٠] ، وكقوله : ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ [النمل: ٦٢] ، وقوله : ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ١٣٠] ، وقوله : ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَهْلِكَ عِدْوَتُكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الاعراف: ١٢٩] . وقوله : ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ أى : فارت بينكم في الأرزاق والأخلاق ، والمحاسن والمساوى ، والمناظر والأشكال والألوان ، وله الحكمة في ذلك ، كقوله : ﴿نَحْنُ فَسَنَّا بَيْنَهُمْ مَعِيْنَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرِيًّا﴾ [الزخرف: ٣٢] ، وقوله : ﴿انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٢١] .

وقوله : ﴿لِيَلْوَكُمُ فِي مَا تَاكُمُ﴾ أى : ليختبركم في الذى أنعم به عليكم وامتنحكم به ، ليختبر الغنى في غناه ويسأله عن شكره ، والفقير في فقره ويسأله عن صبره . وقد روى مسلم عن أنس بن سعيد الخدرى ، قال : قال رسول الله ﷺ : «إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها فانظروا ماذا تعملون ، فاتقوا الدنيا ، واتقوا النساء ، فإن أول فتنة بنى إسرائيل كانت فى النساء» (١) . وقوله : ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ : ترهيب وترغيب ، أن حسابه وعقابه سريع فيمن عصاه وخالف رسله ﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لمن والاه واتبع رسله فيما جاؤوا به من خير وطلب .

وكثيرا ما يقرن تعالى فى القرآن بين هاتين الصفتين ، كما قال ﴿بَنِيٰٓ عَادٍ أَنَّىٰ أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . وَأَنْ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩ ، ٥٠] ، وقوله : ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الرعد: ١٦] وغير ذلك من الآيات المشتملة على الترغيب والترهيب ، فإتارة يدعو عباده إليه بالرغبة وصفة الجنة والترغيب فيما لديه ، وإتارة يدعوهم إليه بالرهبة وذكر النار وأنكالها وعذابها ، والقيامة وأهوالها ، وإتارة بهذا وهذا ؛ لينجع فى كلِّ بحسبه . جعلنا الله عن أطاعه فيما أمر ، وترك ما عته نهى وزجر ، وصدقه فيما أخبر ، إنه قريب مجيب سميع الدعاء ، جواد كريم وهاب . وقد روى الإمام أحمد عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : «لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بالجنة أحد ، ولو

(١) صحيح مسلم (٢ / ٣٢١) . والذى فيه : « فينظر كيف تعملون » .

يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قَنَطَ من الجنة أحد ، خلق الله مائة رَحْمَةً فوضع واحدة بين خلقه يتراحمون بها ، وعند الله تسعة وتسعون [رحمة] . ورواه الترمذى وقال : حسن . ورواه مسلم (١) .

آخر تفسير سورة الأنعام والحمد لله والمنة (٢)

(١) المستد (١٠٢٨٥) ومسلم (٢ / ٣٢٥) ، ولكن ليس عنده قوله : « خلق الله مائة رحمة . . . » . ولكنه ثابت عنده بمعناه (ص ٣٢٤) من وجه آخر من حديث أبي هريرة .
(٢) هنا بهامش المخطوطة العتيقة ما نصه : « آخر الجزء الثانى من تفسير سورة الأنعام ، من خط المؤلف ، عفا الله عنه » . وبهامشه أيضا : « بلغ مقابلة بالأصل » .